زوجي لي تورنو

حركة الموحدين في المغرب

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

ترجمة

الدكتور أمين الطيبي

الدار العربية للكتاب

رُوجي لي تورنو

حركة الموحدين في المغرب
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

ترجمة

الدكتور أمين الطيبي

الدار العربية للكتاب

تقديم المعرّب

هذا الكتاب الذي نضعه بين ايدي القرّاء هو ترجمة لكتاب بعنوان (انظر أسفله) من تأليف الدكتور روجرلي تورنو (انظر أسفله) أستاذ الحضارة الاسلامية بجامعة إكس ـ إن ـ بروفانس (انظر أسفله) الفرنسية، الذي قدّم عبر سنوات دراسات وبحوثا قيّمة بالنسبة لتاريخ المغرب عامة . ولاسيما المغرب الأقصى، في فترة القرون الوسطى . والموحدون جديرون بالدراسة ، اذ انهم أقاموا امبراطورية شاسعة . في القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، امتدّتْ رقعتها من طرابلس الغرب شرقا الى المحيط الأطلسي غربا . فضلا عن الأندلس . وكان قيام هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف نتيجةً لحركة اصلاح ديني بدأها محمد بن تومرت ، ولعبتْ دولة الموحدين دورا مهما في صدّ الخطر النصراني الذي كان يهدّد ما بأيدي المسلمين في شبه جزيرة إيبرية وفي إبعاد النورمان نهائيا عن ساحل افريقية . ولو أن البعض يرى في قيام الموحدين وقضائهم على دولة المرابطين عرقلة لحركة الجهاد في الأندلس التي اضطلع بها المرابطون الى أن قامت حركة ابن تومرت فصرفتهم عن مواصلة الجهاد في الأندلس الى مواجهة ثورات الموحدين في المغرب الأقصى .

---

(1) (THE ALMOHAD* MOVEMENT IN NORTH AFRICA IN THE TWE-LFTH AND THIRTEENTH CENTURIES)

(2) (ROGER LE TOURNEAU)

(3) (AIX-EN-PROVENCE)

ان هذا الكتاب هو ، كما يذكر مؤلفه ، مجموعة تأملات حول حركة الموحدين منذ بدايتها حتى نهاية دولة الموحدين ، ضمَّنها المؤلف ثلاثَ محاضرات القاها في جامعة برنستون الأمريكية ، تناول فيها على التوالي مولدَ الحركة ، وتشييد الإمبراطورية ، وتداعيها وسقوطها . والحق يقال إن المؤلف وُفِّق فيها كل التوفيق ، وتابع تاريخ الموحدين خطوة خطوة من البداية حتى النهاية ، محلِّلا ومعلِّلا ومدعما حجته بالأدلة . وعلى ذلك ، فالكتاب قيِّم بالغ الأهمية للباحثين والدارسين من حيث عرضه للحقائق وتحليلها تحليلا علميا وافيا . وقد اعتمد المؤلف في كتابه على جميع المصادر العربية الأصلية المتوفرة ، وعلى ما نشره المستشرقون من بحوث ومقالات في هذا الصدد . ولا يعني إمساكنا عن التعليق على ما ذكره المؤلف ارتضاءنا له كله او بعضه ، وتسليمنا بسلامة ما ارتآه وصحة ما ذهب اليه ، بل آثرنا ان نترك للقارىء اتخاذ ما يراه من موقف تجاه ذلك .

وقد انتهجنا في ترجمة الكتاب عن الإنجليزية التقيد الدقيق بالنص ما أمكننا ذلك ، محاولين في الوقت ذاته الا يُخلَّ ذلك بالنص العربي أسلوبا وسلاسة . وقمْنا باقتباس النصوص الأصلية من مظانّها ، واضفْنا بعض الحواشي والتعليقات اللازمة مشيرين الى ذلك في موضعه ، كما حرصْنا على ذكر التواريخ الهجرية مقابلة لما اورد المؤلف من التواريخ بالسّنة الميلادية . واشرنا كذلك الى المصادر العربية الأصلية المطبوعة ما امكن ، بدلا من الاشارة الى ترجماتها باللغتين الإسبانية والفرنسية ، وأوردنا هذه المصادر في ثبت المصادر في آخر الكتاب . كما حرصْنا على الاشارة ، حيث يقتضي الأمر ذلك ، الى الجزء الثالث من كتاب (البيان المغرب) لابن عذاري ، الخاص بالموحدين ، والذي صدر في تطوان عام 1963 ، بدلا من الاكتفاء بالاشارة

الى مجموعة هويثي ميراندا الخاصة بالمصنَّفات التاريخية العربية : (4) .

واخيرا فاننا نأمل في ان يكون الكتاب عونا لأساتذة الجامعات والمعاهد العلميه وطلبتها والباحثين في تفاصيل حقبة مهمة من تاريخ المغرب الاسلامي ، بحيث يمكّنهم ـ وبخاصة اولئك الذين لا يلمُّون بلغة اجنبية ـ من الاطلاع على ما يقوم به الباحثون المتخصصون في هذا المجال من دراسات تحليلية علمية .

هذا ، ونود ان نعبِّر عن شكرنا وتقديرنا لصديقنا وزميلنا بكلية التربية بجامعة الفاتح الأستاذ عبد الله محمد الهوني لقراءته النص العربي المترجم وابدائه بعض الملاحظات اللغوية التي اخذنا بها ، كما نود ان نشكر (الدار العربية للكتاب) لما تُسديه من خدمات جليلة في سبيل نشر المعرفة واحياء التراث في ارجاء الوطن العربي ، والله الموفق .

30 رجب 1398 هـ ـ الموافق 5 يوليو 1978 ـ طرابلس الغرب .

أمين توفيق الطيبي

---

(4) (COLECC TION DE CRONICAS ARABES)

تقديم المؤلف

في خريف عام 1959 ألقيتُ ثلاثَ محاضرات عامة حول حركة الموحدين في جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اقترح عليَّ بعد ذلك الأستاذ ت . كويلر يونج (انظر أسفله) رئـيـس دائـرة اللغـات الشرقية بجامعة برنستون ، أن أُعدَّ هذه المحاضرات للنشر . وقد مكّنني ذلك من التوسع في المو ضوع ومن عرضه بطريقة علمية أكثر .

ان هذا الكتابَ هو مجموعة من التأملات حول الموحدين ، وهو لذلك ليس تاريخا للحركة ، إذ ان دراسة تاريخ حركة الموحدين قد قام بها باحثـون آخرون اكثر من مرة ، ومنهم في الآونة الأخيرة الباحـث الاسباني البلنسي أمبروسيو هويثي ميراندا (انظر أسفلـه) في مجلَّديْه بعنـوان : التـاريخ السياسي للامبراطورية الموحدية (انظر أسفله) اللذيْن نُشرا في 1956 ـ 1959 . ان هدفنا الرئيسي هو محاولة فهم الكيفية التي نجح بها الموحدون في توحيد كل بلاد المغرب والأندلس تحت سيطرتهم ، ثم محاولةَ معرفة الأسباب التي أدَّتْ إلى إخفاقهم في الاحتفاظ بهذه الوحدة . وفضلا عن ذلك ، فان أهمية هذه الدراسة ليست أكاديمية بحتة ، إذ ان وحدة بلاد المغرب هي قضية معاصرة اليوم ولا نقصد بذلك القول ما حدث في الماضي سوف يحدث بالضرورة مره أخرى على نفس الأسس في المستقبل ، أو ان وحدة بلاد المغرب لا يمكن أن

---

(1) (T. CUYLER YOUNG)

(2) (AMBROSIO HUICI MIRANDA)

(3) (HISTORIA POLITICA DEL IMPERIO AL MOHAD)

تكون سوى قضيةٍ مؤقتة وهشَّة . فالعوامل والظـروف الـرئيسية للفَتـرة الحديثة تختلف اختلافا بيّنًا عن تلك السائدة في الفترة الموحدية . اننا نعتقد ان بعض العوامل الأساسية القائمة اليوم كانت قائمةً في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وبالتالي فان على من يَسْعَون الى تحقيق وحدة بلاد المغرب آخر الأمر ان يُفكروا مليًّا في التجربـة الموحـدية ، وان يتجنبوا ، إن أمكن ، بعض النواحي التي قصرً فيها الحكّام الموحدون .

روجر لي تورنو

برنستون: ربيع 1968

الفصل الأول
ميلاد حركة

في خلال عام 512 هـ/1118 م على ما يُحتمل ـ فسنوات هذه الأحداث ليست دقيقة جدا (1) ـ نزل الى البر في المهدية بافريقية، رجل من بربر المغرب الأقصى قادمًا من الشرق الأدنى ، حيث كان قد أمضى سنوات طالبًا وعلى اتصال وثيق بكثير من العلماء والفلاسفة البارزين . كان محمدُ بن عبد الله ابن تومرت عائدا الى مسقط رأسه ، وقلبه مفعم بالآراء الجديدة ، وهو مقتنع بانه يحمل رسالة إصلاح الاسلام في المغرب . وقد قُدّر له أن يبدأ حركة تُعدُّ من أهمّ الحركات المذهبية والسياسية التي سبق ان شهدتها المنطقة ، ألا وهي حركةُ الموحدين .

وُلد ابنُ تومرت في جنوب المغرب الأقصى ، ويُحتمل ان ذلك كان على المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال الأطلس الداخلية في مكان يُسمَّى إجيلّيز ـ ن ـ هرغة (انظر أسفله).وهي قرية تقطُنها بعضُ العائلات التي تنتمي الى قبيلة هرغة المتفرعة عن جماعة بربرية أكبر هي مصمودة المعروفة الآن باسم شلوح(انظر أسفله) (2) . وكان ابن تومرت ابنًا لأحد صغار

(1) حول بداية ابن تومرت والتواريخ ، انظر أمبروسيو هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين ، الجزء الاول ، ص 23 ـ 38 .

(2) المصدر نفسه ، ص 23

(IGILLIZ-N-HARGHA)

(SHLEUH)

رؤساء القرية ، وقد اثبت النسّابون فيما بعد ان أسرته متصلةُ النّسب بأسرة النبي صلىً الله عليه وسلَّم (3) . ولعلً هذه الصلة صحيحة ، اذ انه في نهاية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي وفد الى المغرب عدة افراد من هذه الأسرة الشريفة فرارا من اضطهاد العباسيين ، وتوجَّه بعضهم ، كما يذكر بعض المؤرخين ، حتى جبال الأطلس . الا ان سلسلة النسب الشريفي لابن تومرت ليست أكيدة ، وقد لا تقوم على أساس . وعلى أية حال ، وحتى لو كان في عروقه بعضُ القطرات من الدم الشريفي ، فانه تلقَّى تعليمه في بيئة بربرية صرفة ، وكان معظم أجداده من المصامدة .

لقد دُرس المصامدةُ بعناية (4) لأنهم يشكِّلون جماعة أصيلة ومتجانسة . وكما هو حالهم اليوم ، فانهم كانوا في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يسكنون النصف الغربي من سلسلة جبال الأطلس الأعلى من المحيط الأطلسي الى مناطق تادلا ، وكلي سلسلة جبال الأطلس الداخلية . وكانوا ينقسمون الى عدد من الوحدات السياسية المتباينة الأهمية : اتحادات قبائل،وقبائل أو بطون .

وقد ظلّ المصامدة الى يومنا هذا يحتفظون بلغتهم البربرية النقية ، وبتنظيماتهم السياسية،وكذلك ، فيما يحُتمل ، بأعرافهم القضائية وأنماطهم

---

(3) ليفي ـ بروفنسال : وثائق لم تُنشر عن تاريخ الموحدين . ميراندا : التاريخ السياسي .. ، انظر في موضعه ، ص 26 ـ 27 .

[يرى ابن خلدون ان الفقهاء نفوا انتساب ابن تومرت في اهل البيت مدفوعين في ذلك بعاملي الغيرة والحسد اولا،وثانيا لما آلت اليه مكانتهم في عهد الموحدين بعد ان علتْ منزلتهم واستأثروا بالحظوة أيام المرابطين . « واما انكارهم نسبه في اهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع انه ان ثبت انه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه ، لأن الناس مصدقون في انسابهم .. »،مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 26 ـ 27 . المعرّب] .

(4) روبرت مونتان : البربر والمخزن في جنوب الغرب الاقصى . جاك بيرك : البنيات الاجتماعية في الأطلس الأعلى ، باريس ، 1955 .

العائلية ، وكانوا كذلك قد اعتنقوا الدين الاسلامي منذ زمن ، ولعلَّ ذلك كان منذ ان اجتاز عقبةُ بن نافع تلك المناطق في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي (5) ، أو منذ ان وفد الى السلاسل الجبلية بجنوب المغرب الأقصى عدة أشخاص من ذرية النبي صلى الله عليه وسلّم فرارا من أذى العباسيين وبحثًا عن مأوى أمين (6) ، أو قد يرجع اعتناقُهم للدين الاسلامي الى سنة 197 هـ/813 م حينما أقام ادريس بن ادريس سلطانه عليهم (7) . وكان إسلامهم منغرسا بعمق في نفوسهم ، الا ان ذلك الاسلام كان يفتقر الى العقيدة والشرائع ـ أي انه كان إسلاما يستهوي القلوب أكثر من تبديله لأعراف القوم .

كان المصامدة في الفترة التي وُلد فيها ابن تومرت يخضعون نظريا لحكم المرابطين ، الا انهم كانوا فيما يبدو يتمتعون بما يُسمَّى اليوم بالاستقلال الداخلي مع استثناء وحيد . فقد كان السلطان المرابطي يوفد من آن الى آخر حملة عسكرية الى المغرب لجباية الضرائب ، وكان جنود المرابطين يتصرفون وكأنهم دخلوا بلادا مفتوحة (8) . الا انه ليس ثمة ما يدل على ان شعورا بالثورة ضدّ السلطة الحاكمة كان قد ظهر في أذهان المصامدة قبل عودة ابن تومرت اليهم بعد اقامته في المشرق ، كما انهم لم يشعروا بأي قلق من الطريقةِ التي مارسوا فيها ديانتهم الاسلامية .

ان تاريخ مولد ابن تومرت ليس واضحا ـ وقد ذكر المؤرخون تواريخ لولادته تتراوح ما بين عام 470 هـ/1077 م وعام 490 هـ/1097 م ـ الا انه اذا أوجزْنا كل المعلومات المتوفرة ، كما فعل هويثي ميراندا ، أمكننا

---

(5) ليفي ـ برفنسال : معلومات جديدة عن فتح العرب لشمال افريقيا ، نُشر البحث في مجلة (ARABICA) العدد 1 (1954) ،ص 38 ـ 39

(6) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص 4

(7) المصدر نفسه ص 27 ، حيث يُذكر المصامدة بالاسم

(8) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 296/8 .

افتراض ان تاريخ ولادته كان قريبا من عام 472 ـ 473 هـ/1080 م .

ولا نعرف شيئا محدّدا عن طفولته ، اللهم الا ان ابن تومرت كان صبيا متدينا ومجُدّا الى حد كبير . وفي عام 500 هـ/1106 م أو بعد ذلك ، شرع في طلب العلم ، ويحُتمل ان يكون قد أمضى بعض الوقت في قرطبة . ثم سافر بحرا الى المشرق الاسلامي حيث من المؤكد انه قضَى نحو عشر سنوات . ان هذا النوع من السلوك لم يكن مألوفا بين البربر في المغرب الأقصى ، الا انه بعد ذلك بسنوات ، كان شاب آخر من البربر ، هو عبد المؤمن ، يوشك ان يتوجَّه الى المشرق لنفس الغرض ، اذا كان لنا ان نأخذ بروايات المؤرخين ، حينما تقابل مع ابن تومرت كما سنرى فيما بعد . وللمرء ان يتصور ان ابن تومرت حينما شرع في التوجه الى المشرق لم يَبْتغ الا ان يصبح عالما . بيْد أن من المؤكد انه حينما عاد الى المغرب ، اعتبر نفسه صاحب رسالة ، وهي رسالة الاصلاح الديني . فالمراكشي ، أحد مؤرخي فترة الموحدين ، وبعض المؤرخين الآخرين ، يصوِّرونه يتصرف كمصلح للأخلاق في الاسكندرية ، وحتى على ظهر المركب في طريق عودته الى المغرب (9) وإلودِّنا ان نعرف بالتفصيل تطوّر تفكير ابن تومرت أثناء إقامته في مصر والشام ، الا انه لا تتوفر لدينا سوى معلومات محدودة ومتناقضة احيانا . فعلى سبيل المثال ، يقول بعض المؤرخين ، استنادا الى أقوال شهود عيان ، انه لقي الامام الغزالي في بغداد وتسلَّم على يديه مهمةَ الإطاحة بالمرابطين سادة المغرب الأقصى آنذاك ، بينما يؤكد آخرون ، كابن الأثير المؤرخ الحسن الاطلاع جدا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، تأكيدا قاطعا ان ذلك الاجتماع لم يتمَّ اطلاقا . وفيما يلي نصُّ العبارة بهذا الخصوص التي أوردها صاحب كتاب (الحلل الموشية)

---

(9) المراكشي : المعجب ، ص 179 .

« حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمان العراقي ، شيخٍ مسنٍ من سكان فاس قال : كنتُ ببغداد بمدرسة الشيخ الامام أبي حامد الغزالي ، فجاءه رجل كثُّ اللحية على رأسه كرزي [عمامة] صوف ، فدخل المدرسة وأقبل على الشيخ أبي حامد ، فسلَّم عليه فقال :ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المغرب الأقصى . قال : دخلتَ قرطبة ؟ قال : نعم

قال : كيف فقهاؤها ؟ قال : بخير . قال : هل بلغهم كتابُ الإحياء ؟ قال : نعم .

قال : فماذا قالوا فيه ؟ فصمتَ الرجل حياءً ، فعزم عليه ليقولنَّ ما طرأ . فأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرتْ . قال : فتغيرَّ وجهه ومدَّ يده الى الدعاء ، والطلبة يؤمّنون . فقال : اللهم مزِّقْ مُلكهم كما مزّقوه ، وأذهبْ دولتهم كما أحرقوه . فقال أبو عبد الله بن تومرت السوسي الملقب بالمهدي : أيها الامام ، ادعُ الله ان يجعل ذلك على يدي . فتغافل عنه ، فلما كان بعد أيام ، أتى الحلقةَ شيخ آخر على شكل الأول ، فسأله الشيخ أبو حامد ، فأخبره بصحة الخبر المتقدم ، فدعا بمثل دعائه الأول . فقال له المهدي : على يدي ان شاء الله . فقال : اللهمَّ اجعلْه على يدك . فقبلَ اللهُ دعاءه . وخرج أبو عبد الله ابن تومرت من بغداد وصار الى المغرب ، وقد علمَ ان دعوةَ الشيخ لا تُردّ » (10) .

وقد خُيِّل الينا بادىء الأمر ان هذه الشهادةَ كانت صحيحةٌ وان ابنَ تومرت ، بتأثير الامام الغزالي ، تكشّفتْ له فجأة رسالة سياسية في المغرب ، وانه عاد الى مسقط رأسه وقد عزم على الإطاحة بدولة المرابطين (11) . الا

(10) الحلل الموشية ، ص 85 ـ 86

(11) روجر لي تورنو : مقالة بعنوان : الغزالي وابن تومرت هل تقابلا ؟ ، في مجلة الدراسات العربية (BULLETIN DES ETUDES ARABES)، وحول الموضوع ،انظرْ اعتراضات هويشي ميراندا في مقاله بعنوان : الاسطورة والتاريخ في نشاة الإمبراطورية الموحدية ، مجلة (الأندلس) ، العدد 14 (1949) ، ص 342 ـ 345 .

اننا بعد التفكير في الأمر انتهيْنا الى اننا كنا على خطأ . فلم نكنْ قد أعرنا الاهتمام الكافي الى الطبيعة الأدبية لوصف الكاتب للحادثة ، والى التطابق الغريب والكامل اكثر من الحد لاجتماع رجلين قدما من الأندلس في غضون بضعة ايام ، والى الالتفات المسرحي للامام الغزالي ضد المرابطين . وقد أُعدَّ كلُّ ذلك بشكل كامل يُستبعد معه تصديقه . وفضلا عن ذلك ، فان ابن تومرت حينما عاد الى المغرب لم يسلك فوْرًا مسلك عدوٍ للمرابطين ، وانما تصرُّفَ مُصْلحٍ أخلاقي وفقيه ليس إلا . فبدلا من ان ينطلق بسرعة نحو أراضي المرابطين ، أمضى شهورا ، ولعلَّه أمضى سنوات ، في الطرف الشرقي من شمال افريقيا الذى لم يكن تحت سلطان المرابطين . فلو انه كان مقتنعا بانه عُهد اليه بنوع من الرسالة المقدسة لإقصائهم لسلك مسلكًا آخر . لذلك يبدو ان الشهادة السابقة ينبغي رفضُها ، كما ينبغي كذلك نبذُ الفكرة القائلة ان الامام الغزالي مسؤول عن الدعوة السياسية لابن تومرت .

ومهما يكن من أمر ، فان اقامة ابن تومرت الطويلة في مصر والشام كانت بالتأكيد الأساس لسلوكه في المستقبل . ففي هذيْن البلديْن وجد ابنُ تومرت نفسه في جوّ فكريّ حافز . فالمجادلات الفقهية العظيمة التي جرت في القرون السابقة كانت قد خلَّفتْ آثارا ، وكانت المدرسة الفقهية الأشعرية التي كانت قد سادت آخر الأمر ما تزال في أوج قوتها ونشاطها . واذا لم يكن ابن تومرت أحدَ طلبة الامام الغزالي ولا من أتباع مذهبه ، فان من الجلي انه كان قد سمع بذلك المذهب . ويستطيع المرء ان يتصوّر بسهولة النشاط العظيم لعقل ابن تومرت . فكان يقارن باستمرار بين ما شاهده وسمعه في المشرق ، وبين ضحالة الاسلام وسذاجته في المغرب ، وخصوصا في موطنه المغرب الأقصى ، مُنتهيا الى ان الوضع هناك ينبغي تغييرُهُ والى انه سيكون هو الأداة لذلك التغيير . الا اننا مقتنعون بأنه قد توصَّل الى هذا الرأي تدريجيا ، وانه فكَّر فيه على أساس الأخلاق وربما الفقه ، دون ان

يكون تفكيره قائما بعدُ على أساس سياسيّ . وليس بوسعنا معرفة ما اذا كان قد اتخذ موقفا سياسيا قبل وصوله الى مدينة مراكش .

لذلك فانه تبدو بعيدةً عن الحقيقة تلك الصورةُ التي رسمها مؤرخو ابن تومرت ، وهي انه تملَّكه شيء من الوحي (كما حدث للقديس بولص في طريقه الى دمشق) وانه شعر بانه عُهد اليه برسالة سياسية ودينية ، كما يصوِّر ذلك كثير من المؤرّخين سواء منهم من كان يميل اليه ام لا .

وعلى اية حال ، فانه يبقى صحيحا ان ابن تومرت تأثر تأثرا عميقا برحلته الى المشرق ، وعاد وهو يؤمن بان الاسلام في المغرب ، و بخاصّة في المغرب الأقصى ، لم يكن كما ينبغي ان يكون . واذا كان ابنُ تومرت لم يعُدْ من المشرق كثائرٍ سياسي ، فانه عاد كمصلح للأعراف والعقيدة ، ومن المحتمل انه كان مقتنعا بان من واجبه الوصولَ بمثل هذا الاصلاح الى نهاية موفّقة ، وانه هو الشخص الوحيد الذي يستطيع القيام بذلك .

هكذا كانت ، فيما يبدو لنا ، الحالةُ الفكريةُ لمهديٍّ المستقبل ، حينما شرع في رحلته عائدا الى وطنه . فمن المستبعد انه كان في تلك الفترة المبكّرة قد أعدّ خطّة محدّدة للعمل ، إذ انه كان قد ابتعد عن وطنه زمنا طويلا ، ولا يحُتمل انه كان على علم بما يجري في وطنه . الا انه يبدو واضحا انه نظر الى نفسه وكأن المولى عز وجل قد عهد اليه بهداية اخوانه البربر الى الصراط المستقيم . ولا يبدو ان هذا الايمان كان نتيجة لأي مؤثّر خارجي معينً ، كالامام الغزالي مثلا ، بل نتيجة لتطور داخلي طويل إثْرَ كل ما شاهده وسمعه اثناء السنوات التي امضاها في المشرق . ومن المؤسف انه لا يتوفر لدينا من المعلومات ما يوضح هذه الفترة في حياة ابن تومرت ، ولكن القسم

الأول من كتاب البيذق ، الذي كان من الممكن ان يكون مساعدا ، إما انه فُقد واما ، وهو الأكثر احتمالا ، ان المؤلف ، وهو رجل بسيط ، لم يكنْ في استطاعته ان يتتبع بصورة كافية التطور في تفكير رجل كالمهدي .

وفضلا عن ذلك ، فلا يبدو ان حركة ابن تومرت كانت استجابة لحاجة عميقة من جانب السكان البربر . وكما سبقَ ان اكّدنا ، فليس ثمة ما يسمح للمرء بالاعتقاد ان البربر تحت حكم المرابطين كانوا يعانون من قلقٍ روحي . وعلى الاكثر يظهر انهم وجدوا ان الحكام المرابطين افتاتوا احيانا على حريتهم ، ولكن ذلك لم يكنْ بصورة أكثر شدة مما قامتْ به الدول المختلفة التي تعاقبتْ على الحكم في المغرب الأقصى .

وبالطبع فان ابن تومرت وجد بعض الظروف المواتية التي عرف كيف يستغلُها ، الا ان في وسع المرء القولَ انها لم تكنْ عاملا حاسما . وقد ساهمتْ بدورها كنتيجة فقط لمبادرة ابن تومرت .

وعلى ذلك ، فان للمرء ان يستخلص ان حركة الموحّدين في أوّل أمرها تلقّتْ حافزها من التطوّر الروحي لشخص بمفرده ، ومن إرادته التي لا تنثني لانجاز الرسالة التي كان قد اضطلع بها .

ومن المحتمل ان ابن تومرت نزل الى البرّ في المهدية في مغربٍ لم يسبقْ له قطّ ان عرف الوحدة السياسية باستثناء فترة تقرب من ثلاثين سنة في بداية الفتح العربي . وبعد وصول القبائل العربية الرحل في عام 443 هـ/1051 م ، تجزأ شرق المغرب ، اي افريقية ، الى عدة إمارات صغيرة حكمتْ بعضَها اسرٌ عربية ، وحكمت البعضَ الآخر أسرٌ من البربر . وقد هدّد البدو

مملكة بني حمّاد بدوْرها . وهي دولة بربريةَ قامتْ في المغرب الأوسط في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . فقرّر ملوكها نقل عاصمتهم من قلعة بني حماد الى بجاية في عام 484 هـ/1091 م . وبذلك تخلّوا عمليا عن الجزء الجنوبي من اراضيهم للبدو .

أما امبراطورية المرابطين . التي تأسست قبل ذلك بنحو خمسين عاما على ايدي جماعة من قبائل البربر في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى . فقد كانت ذات حضارة مستقرّة باهرة . ازدهرت الى الغرب من مملكة بني حماد (12) . وبقيادة رجلٍ على جانب عظيم من الكفاءة هو يوسف بن تاشفين . استولى المرابطون على النصف الغربي من المغرب وعلى كل بلاد الأندلس . وبعد ذلك بوقت قصير . تحوّل هؤلاء البربر تحت تأثير الأندلس . من رعاةٍ للإبل ـ وكان ذلك على الأقل بالنسبة للنخبة منهم ـ الى شعبٍ على مستوى عال من الثقافة . أولع بالشعر الأندلسي والفن المعماري الأندلسي والترف الأندلسي . وبكلمة واحدة فانهم تعلّقوا بالحضارة الأندلسية . ولم يدّخروا وُسْعا في نقل هذه الحضارة الى المغرب . حيث كانت هذه الحضارة قد ظهرتْ بصورة خافتة في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .

ولم تكنْ امبراطورية المرابطين أكبر دولة إسلامية تُقام في شمال افريقيا : ففي عهد الخلافة الأموية كان قد توحّد تحت سلطة حاكم واحد كلُّ الشمال الأفريقي وكلُّ شبه جزيرة ايبرية تقريبا . وبعد ذلك في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي شمل حكم الفاطميين الجزء الأكبر من بلاد

(12) حول المرابطين . انظر هنري تراس : تاريخ المغرب الأقصى . الجزء الأول ،ص 211 ـ260

المغرب . الا انه حتى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، لم يكن البربر قد نجحوا في خلق وحدة سياسية كبيرة كهذه تحت لواء الاسلام . وكانت الامبراطوريات السابقة قد أقامها فاتحون من خارج المنطقة فرضوا حكمهم . ومن الواضح ان قبيلة كُتامة كانت قد ساعدتْ الفاطميين في إقامة سلطتهم والاحتفاظ بها ، الا انها كانت مجرد أداة في أيدي سادةٍ من المشرق تنازلوا لمعاونيهم البربر عن بعض منافع السلطة ، وعن بعض الامتيازات ، مع انهم لم يدَعوهم يشاركون في استعمال السلطة .

أما بالنسبة للمرابطين ، فانهم كانوا بربرا حقيقيين أقاموا ، دون مساعدة احد ، امبراطوريتهم بأيديهم . فعبد الله بن ياسين ، المؤسّس الديني لحركة المرابطين ، وابو بكر بن عمر ، أوّل رئيس مرابطي فتح الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى ، ويوسف بن تاشفين ، الذي وسَّع رقعة سيادة المرابطين الى مدينة الجزائر شرقا والى سرقسطة شمالا ، كانوا ثلاثتهم ينتمون الى بربر قبيلة صنهاجة ، وقد وُلدوا في بيئة بربرية .

غير ان سلطة المرابطين احتوتْ في نفسها بذرة ضعفها . فحينما استقرَّتْ القبائل الوافدة من الصحراء في المغرب والأندلس ، لم تسمح لقبائل البربر التي اخضعتْها بالقوّة بان تشاركها انتصارها . فقبائل زناتة ، التي كانت قد وطَّدتْ سلطتها في جزء كبير من البلاد ، اعتبرتْها قبائل صنهاجة منافسة لها . ولعلها اعتبرتْها منافسةً وراثية اذا سلَّمنا بان عداء عنصريا كان قد خلق العداء بين هاتينْ المجموعتين ، وعوملتْ قبائل زناتة كقبائل منافسة . اما قبائل برغواطة (13) التي عوملتْ على انها مارقة عن الدين ، فقد

(13) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ، المجلد الاول ص 1075 (الطبعة الفرنسية) ، ص 1042 ـ 1045 (الطبعة الانجليزية) .

استؤصلتْ لهذا السبب . وجدير بالملاحظة ان قبيلتيْ زناتة وبرغواطة كانتا تشكّلان مجموعتينْ بربريتينْ مهمتين في المغرب الأقصى وغرب الجزائر . اما قبائل البربر الأخرى (كالمصامدة مثلا) ، التي لم يتمَّ إخضاعها ، فانها مع ذلك هبطتْ الى مرتبة الرعايا حسب التقليد المُتَّبع . وعلى أيّة حال ، فان مسلمي الأندلس قد نعموا بحضارة زاهية ورفيعة ، ومع أن الكثيرين منهم شاركوا كفنيين في تشييد امبراطورية المرابطين ، فانهم عوملوا في بلادهم معاملة شعب مغلوب على امره . واصبحوا تحت رحمة جنود المرابطين وإجراءاتهم المزعجة (14) .

وليس ثمة ما يدل على ان البربر ، تحت سيادة المرابطين ، حملوا في صدورهم أفكارا للثورة ، الا ان للمرء ان يتصور بانهم أحسوا بشيء من الاستياء حينما رأوا صنهاجة الصحراء يحكمون بمفردهم ، ويسلكون باستعلاء تجُاه من لم يكن ينتمي الى جماعتهم المنتصرة . وعندئذ لنا ان نفترض باطمئنان انهم كانوا على استعداد لاتّباع كلّ من يعارض السادة المرابطين .

وبالرغم ممّا بلغته حضارة دولة المرابطين من ازدهار في ذلك الوقت ، فانها كانت من بعض النواحي غير مستقرّة ، اذ ان هذه الزهرة الجميلة كانتْ قد نمتْ بسرعة كبيرة وكانت غضَّة . واذا تركْنا جانبا الحكام الذين تثقفوا ولم يعودا سُذَّجا ، فان معظم المرابطين وبقية سكان المغرب الأقصى كانوا ما

---

(14) ليفي ـ بروفنسال : اشبيلية الإسلامية في القرن الثاني عشر ، باريس ، 1947 ص 61 ـ 62 .

[ابن عبدون . رسالة في القضاء والحسبة ، ضمن ثلاث رسائل اندلسية ، القاهرة ، 1955 ، ص 16 ، 28 ـ المعرّب] .

يزالون على البساطة . وأخذت الشقّة في الاتّساع بين النخبة وبين أغلبية السكان . ومن ناحية اخرى . فانه حتى الحكّامُ المرابطون كانوا أسارى نشأتهم الدينية . فكانوا قد استولوْا على المغرب الأقصى باسم الدين مقتنعين بانهم يحملون رسالة إصلاح الاسلام في تلك البلاد . وبالتالي فانهم منَحوا الفقهاء سلطة كبيرة . وكان الفقهاء مشبعين بالمبادىء الصارمة للمذهب المالكي . وهكذا فانهم كانوا يسيرون طبقا للنص الحرفي للقرآن الكريم لا طبقا لروحه . فكان ان ظهروا بمظهر التمسك الشديد بالشكليات . وقد وصل بهم الأمر في مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي الى ان أحرقوا علنًا كتاب الامام الغزالي (إحياء علوم الدين) اذ اعتبروه مجموعةً من البدع (15) . وأخيرا وبعد عام 500 هـ/1106 م خلف يوسف بن تاشفين على رأس دولة المرابطين ابنهُ على بن يوسف وكان شديد الورع . حسن الثقافة . ومتعلّقا بالحضارة الأندلسية . الا انه كان ضعيف الارادة واقعًا تحت التأثير الكامل لضيّقي الأفق من الفقهاء (16) . وباختصار . فانه كان يقوم خلف المظهر الخارجي الجميل لامبراطورية المرابطين مجتمع في مرحلة انتقالية . ولم تكن الأجزاء التي جمعت بأمر يوسف بن تاشفين قد التأمت التئاما جيّدا .

ولما نزل ابن تومرت الى البر . شرع دون استعجال في رحلته صوب المغرب الأقصى . يرافقه ثلاثة من اصحابه . كلُّهم مثله من البربر . وكان من بينهم البيذق صاحبُ مصدرنا الرئيسي عن بداية ابن تومرت . ويبدو ان

---

(15) حول هذه النقطة انظر . من بين المراجع . المراكشي : المُعجب . ص 172 ـ 173

(16) المصدر نفسه . ص 171 وما بعدها .

ابن تومرت قبل وصوله الى بجاية توقَّف في أماكن كثيرةَ ، وألقى دروسا علنية وحاول إصلاح العادات الأخلاقية . وفي بجاية ، ساءه ما شاهده من ترف وانحلال خلقي ، فبذل قصارى جهده لتصحيح ما اعتبره منكرًا حتى إنه لجأ الى استعمال العنف في بعض الأحيان .

ان ما رآه مستهجَنا يستحقّ التقريع كان السلوك العام الذي باستطاعته ان يلاحظه ويعاقب عليه في الحال . فيشير المؤرخون (17) الى انه في بجاية كانت ملابس النساء زاهية الألوان مترفة ، وكان بعض الرجال يرتدون ملابس نسائية ، وكان الجنسان يختلطان في الشوارع بمناسبة الاحتفالات الدينية ، وكان النبيذ يُباع علنًا . وفي فاس بعد ذلك ، وجّه ابن تومرت اهتمامه الى الأدوات الموسيقية وأمر طلاّبه بتكسيرها بالجملة (18) . وقد حاول أوّل الأمر بان يبينَ للناس بانهم مرتكبون منكرًا ، وعمل جهده لإعادتهم طوْعا الى الصراط المستقيم . واذا لم يمتثلوا لتقريعه لهم ، كان لا يتردد في تأديبهم بالعصا اذا ما رأى ان سلوكهم مخالف للوظيفة الصحيحة للمجتمع الاسلامي . وكان لموقف ابن تومرت وأعماله في بجاية بعض ردود الفعل ، وطلبت اليه السلطات مغادرة المدينة . ولعلّه حتى هو نفسه ادرك بان الجو الفاسد في بجاية كان متفشّيا لدرجة انه لم يكُنْ في مقدوره إنجاز أيّ شيء بتأنيبه للناس بمفرده ، واستعمال العنف مع غير التائبين منهم . وما كان ليتسنّى بلوغ الغاية المرجوّة الا بالعمل الطويل المضني ، ولذلك فانه

---

(17) ليفي ـ بروفنسال : ست قطع عن بداية الموحدين من تاريخ لمؤلف مجهول الاسم ، نُشرتْ في (MELANGES RENE BASSET) الجزء الثاني، باريس ، 1925 ، ص347 ـ 348 .البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 52

(18) البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 64 ـ 65 .

ترك بجاية طوْعا . واختار بعد ذلك التدريس في ضيعة ملالة الصغيرة على بعد بضعة أميال من بجاية على الضفة اليسرى لنهر سمأن . وفيها شيَّد مسجدا خاصا ، واستقبل بعض التلاميذ ، وتصرف إجمالا وكأنّه كان يعتزم البقاء فيها مدّة طويلة . ويبدو واضحا من هذا انه لم يعتزمْ في هذا الوقت الشروع في عمل سياسي ضد المرابطين ، اذ انه دفن نفسه في مثل ذلك المكان النائي . ولم يكن بوسعه من ملالة القيام بأيّة خطوات هادفة ويبدو ان إصلاح الأعراف الأخلاقية في بجاية كان موضع اهتمامه الأول وكل هدفه في هذا الوقت .

وفي ملالة لقي ابن تومرت الرجل الذي قدِّر له ان يخلفه وان يصبح المؤسّس الحقيقي لإمبراطورية الموحدين ، ألا وهو عبد المؤمن بن علي ، وموطنه سلسلة جبال ترارة الساحلية غربي وهران . ويكاد يجمع المؤرخون على أن هذا اللقاء بين الزعيمينْ كان نتيجةً لعناية إلهية . ويروي البيذق ، وهو يدَّعي انه كان شاهد عيان ، خبرَ اللقاء ، ويبدو ان روايته اكثر الروايات صحة . يقول البيذق إن عبد المؤمن كان في طريقه الى المشرق مع احد أعمامه ، ولما نزل ببجاية سمع بابن تومرت ، ورغب في رؤيته فأذن له عمُّه بالسير الى ملالة لهذا الغرض .

« لما جدَّ [عبدالمؤمن] السير نحو الامام ، اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد . فرفع المعصومُ [ابن تومرت] رأسه فوافقه أمامه فقال له : ادخلْ يا شاب . فدخل ، فاراد ان يقعدَ في جملة الناس ، فقال له الامام المعصوم : أُدْنُ يا شاب . فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم بقرِّبه حتى دنا منه . فقال له المعصوم : ما اسمُك يا فتى ؟

فقال : عبد المؤمن . فقال له المعصوم : وأبوك علي . فقال : نعم . فتعجب الناس من ذلك . فقال له : يا شاب ، من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية . فقال له المعصوم : من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم .

فزاد الناس تعجُبا . فقال له المعصوم : اين تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدي ، نحو المشرق ألتمس فيه العلم . فقال له المعصوم : العلم الذي تريد اقتباسَه بالمشرق قد وجدْتَه بالمغرب .

فلما انصرف الناس من القراءة ، أراد [عبد المؤمن] ان ينصرفَ فقال له المعصوم : تبيتْ عندنا يا شابّ . فقال له : نعم يا فقيه . فبات عندنا ، فلما جنّ الليل أخذ الامام المعصوم بيد [عبد المؤمن] ، وسارا . فلما كان نصفُ الليل ، ناداني المعصوم : يا أبا بكر ، ادفعْ لي الكتابَ الذي في الوعاء الأحمر . فدفعتهُ له ، وقال لي : أسرجْ لنا سراجا . فكان يقرأه على الخليفة من بعده ، وانا يومئذ ماسِك السراج أسمعُه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين ، الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحّدين .

فبكى الخليفةُ عند سماع هذا القول وقال : يا فقيه ، ما كنتُ في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهِّرني من ذنوبي .

فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاحُ الدنيا على يديْك . ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لأقوام كنتَ انتَ مقدَّمهَم ، وويلٌ لقوم خالفوك ، أولهم وآخرهم . أكْثرْ من ذكر الله يباركْ لك في عمرك ، ويهد ك ويعصمْك مما تخافُ وتحذر .

ثم قال لي المعصوم : يا ابا بكر ، ناد الصبيان للوِرْد يقومون يأخذون حزِبهم . فلما اقبلوا ، ناداهم فقال لهم : انما الله اله واحد ، والرسولُ حقّ ، والمهدي حقّ ، والخليفةُ حقّ ، فاقرأوا حديثَ أبي داود تعرفوا الأمر ، وعليكم بالسمع والطاعة لربّكم والسلام . فأخذوا وِرْدَهم ، وقرأوا حزبهم

فلما أصبح ، أَقبل يعلو عمٌ الخليفة عبد المؤمن] وقـال له : يا عبـدَ المؤمن ، حبستَنا حتى تقلعَ المراكب ؟

فقال له المعصوم : العلم الذي يريد بالمشرق قد أتاه بالمغرب . فاترك الأمر على مراد الله والإمام .

وكان [عبدُ المؤمن] يقرأ على الامام المعصوم ، وكان أفهمَ الطلبة . وكان اذا أراد النوم ، يقول له المعصوم : ينامُ من تنتظره الدنيا ؟ فلم يزلْ على تلك الحال أشهرا » (19) .

الا ان ابن خلدون يقول إن عبد المؤمن ، وكان آنذاك طالبا في تلمسان ، أُوفد الى ابن تومرت من قِبَل زملائه الطلبة ليطلب إليه ان يحلَّ محلّ احد معلميهم الذي كان قد توفي قبل ذلك بقليل . وهذا يدلّ على شيئين على الأقلّ : أوّلهما ان صيت ابن تومرت كان آخذا في الانتشار في كلّ مكان ، وثانيهما انه أقام في ملالة وقتا طويلا نوعا ما ، اذ ان وسائلَ الاتصال كانت بطيئة جدا في ذلك الوقت ، ولكي تنتشر الشهرةُ بهذه الطريقة ، كان الأمرُ يحتاج الى فترة طويلة من الزمن .

---

(19) المصدر نفسه ، ص 55 ـ 57

ومن الصعب جدّا معرفةُ أدعى الروايتين للقبول ـ رواية البيذق بما لها من طابع يكتسي عنايةً إلهية ، ام تفسيرُ ابن خلدون الأقرب لأن يتقبَّله العقل . ولعل تفسيرَ ابن خلدون اكثرْ استهواء للمؤرخ الحديث ، لأنه تفسير أدْعى للتصديق ، كما ان ابن خلدون يحظى ـ بحق ـ بمكانة مرموقة بين الكتُّاب الغربيين . بيْدَ انه ينبغي ان لا يغرب عن البال ان ابن خلدون دوَّن هذه الأحداث بعد وقوعها بقرنين ونصف القرن من الزمن ، وان معلوماته عن فترة الموحّدين مليئة بالفجوات الخطيرة .

ان البيذق لم تكنْ لديه بالتأكيد المقدرة الفكرية التي كانت لابن خلدون ، وفي كثير من الحالات يبدو سريع التصديق ، ويكرِّس كل جهده نحو هدف واحد . وفضلا عن ذلك فمن المؤكد انه دوَّن روايته في وقت متأخر جدا ، في عهد عبد المؤمن ،

ولعل الزمن قد غبَّش او شوَّه ما وعتْه ذاكرته . الا ان الحادث كان من الأهمية واستدعاء النظر بحيث انه لابد ان يكون قد ترك اثرا قويا في ذهنه البسيط ، فهو يسرد تفاصيل محددة كثيرة ، ويؤكد انه كان شاهد عيان للوقائع التي يتحدث عنها ، مما يدعونا الى التزام جانب الحكمة والحذر قبل الحكم على قوله . وقصارى القول ، اننا نعتقد ان من غير الحكمة اغفال رواية البيذق والاعتماد على رواية ابن خلدون . وللمرء ان يرتاب في بعض التفاصيل ، الا ان رواية البيذق في مجملها العام ينبغي ان تُولىَ اهتماما جديا .

ولم تَبْدُ لابن تومرت حتى هذه الفترة اية مشاغل سياسية : فهو يدرِّس ويحاول إقناع الناس ، او ارغامهم على التقيد بأحكام الشرع ، او بالأحرى

بتفسير صارم للشريعة.وباختصار فان ابن تومرت يتصرف كذائد عن الشريعة ، التي هي صالحة لكل زمان ومكان ، ضد الأعراف المحلية . ومن المحتمل ان صراعا قد نشأ في باديء الأمر في ذهن ابن تومرت ولكنه ، وقد أدرك ان الشريعة يجب منطقيا ان تحل محل الأعراف . أخمد شكوكه وسيطر على العادات التي ورثها عن آبائه ، وبذلك نصَّب نفسه ذائدا عن الشريعة .

وحين يترك ابن تومرت ملالة ، هل كان ذلك استجابة فقط لدعوة طلبة تلمسان ؟ بشأن هذه النقطة ينبغي ان تؤخذ باهتمام شديد رواية البيذق ، التي انفرد لسوء الحظ بها وحده دون غيره ، والتي يكتنفها الغموض . فهو يقول ، بعد روايته التي تقدَّم اقتباسها ، مباشرة (20) : « فلما كان يوم من الأيام ، أقبل رجلان يريدان المشرق اسم احدهما عبد الله بن عبد العزيز ، والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم فقال لهما الامام : من اين اقبلتُما ايها الرجلان ؟ قالا : من بلاد المغرب ، ولما وصلا بقيا باهتينْ . فقال لهما الامام المعصوم : مالكا لا تتكلمان ؟ فقالا له : نحن ما نفهم العربية . وقالا له : يا فقيه ، وصلْنا من بلاد الأطلس من تينملال . فسألهما في قولهما ، ودعا لهما ، وسارا . فلما امسى المساء ، قال لنا : عوِّلوا على السير نحو المغرب ان شاء الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله . »

وليس من المؤكد أن هذا اللقاءَ كان حاسما ، مع انه لا شيءَ آخرَ يفسرُ المبارحةَ المفاجئةَ لابن تومرت ، الذي كان قد استقرَّ بدون متاعب في ملالة

(20) المصدر نفسه ، ص 57.

في ذلك الوقت . الا ان على المرء ان يذكر ما حدث ، وان يبني افتراضا على وصف زيارة ذينْك الرجلينْ من البربر ، وهو حادث ترك ذكرى محددة كتلك في ذهن البيذق . أليس من الممكن انهما بروايتهما أثارا فجأة أفكارا في ذهن ابن تومرت كانتْ حتى ذلك الوقت قد أخذتْ فقط تتضح شيئا فشيئا ؟ ألمْ يبدأ ابنْ تومرت في ذلك الوقت يفكر أنّ عملا سياسيا ضد المرابطين كان ممكنا في المغرب الأقصى ، وانه على أية حال ينبغي ان يتوجّهَ غربا ، وان يدرس الوضعَ على الطبيعة في المكان عينه ؟

ان ما هو أكيد ويتمشّى مع الافتراض الآنف الذكر هو ان ابنَ تومرت بعد ان ترك ملالة كان على ما يبدو متلهفا للوصول الى موطنه بسرعة ، بينما نجده لا يتردد في السابق في التوقف في طريقه فترات طويلة . ومع ذلك ، فانه اثناء وجوده في المناطق الخاضعة لحكم المرابطين لا يتوانى عن مجادلة رجال الدولة واعظًا اياهم ، وعن محاولة إقناعهم بنقض القرارات التي يراها مخالفة للشريعة . ففي أكرسيف ، يجبر وزيرا على رد غرامة جماعية كان قد فرضها على الأهالي لأن نعامةً له كانت قد قُتلتْ ، ولذلك الغرض يسير ابن تومرت الى المرابط صاحبِ الأمر في البلدة وينجح في مسعاه . وفي فاس ، كما يذكر المراكشي (21) ، أمره الوالي بالخروج من المدينة بتحريضٍ من عدة فقهاء ظهرَ عليهم ابنْ تومرت في مناظرة . وفيما بعد ، لم يتردَّدْ ابنْ تومرت في مواجهة السلطان المرابطي نفسه . وباختصار ، فانه يكتسب ثقة متزايدة في نفسه ، ويبدأ في اعتبار سلطته الروحية مساويةً على الاقل للسلطة الزمنية للوزير والوالي . وهل يختلف ذلك كثيرا عن اقتناعه بان هذه السلطةَ

(21) المراكشي : المعجب ،، ص 184 .

الزمنيةَ ينبغي ان تخضع للسلطة الروحية التي ينبغي ان تحلَّ محلَّها تدريجيا ؟

اننا نميل الى الاعتقاد بان ايمان ابن تومرت الداخلي قد تعزَّز اثناء تأملاته . كما ان الحفاوة التي قوبل بها من قبل الشباب وكثير من المتديِّنين (اذا كان لنا ان نصدِّق رواية البيذق)(22) قد قوَّت من عزيمته . ولعله اصبح مقتنعا بان اناسا كثيرين كانوا في انتظار دعوته ، وانهم سيسيرون في خطاه أنَّى قادهم .

واخيرا وصل الى مدينة مراكش حيث اصطدم متعمّدًا برجال الدولة الرسميين ، وبالسلطان المرابطي نفسه . فقد أنَّب السلطانَ علنًا .

يقول البيذق (23) : « لما دخل مراكش ، نزل بها بمسجد صومعة الطوب ، فمكثْنا بها الى يوم الجمعة . ثم اقبل الى جامع علي بن يوسف فوجد عليّ بن يوسف [السلطان المرابطي] قاعدا على غفارة ابن تيزمت (24) . والوزراء واقفون . فقال له الوزراء : وذَ الخلافة على الأمير . فقال لهم : واين الأمير ، انما أرى جواري منقَّبات . فلما سمع ذلك علي ابن يوسف ، حطَّ النقابَ عن وجهه وقال لهم : صدق . فلما رآه المعصومُ قال

(22) هذه الحفاوة ثابتة في ملالة حيث التقت حول مهدي المستقبل حلقة من الطلبة ، وكذلك في تلمسان ووجدة ، وفي الطريق بين تازة وفاس ، وفي فاس ذاتها حيث يذكر البيذق اسماء اربعة عشر طالبا من الملازمين له ، وفي مكناس حيث يذكر اسماء احد عشر طالبا ، وفي سلا كان احد القضاة من بين من حضروا دروسه .

(23) البيذق : كتاب اخبار المهدي ابن تومرت ، ص 67 ـ 68 .

(24) لعلَّ هذا الرجل كان احد المعاونين المقربين للسلطان ، ولكننا لا نعرف عنه شيئا اكثر من ذلك .

له : الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف . ثم قال له المعصوم : يا علي ، قمْ عن هذه المغيَّرَة تكنْ إمـام عدْل . ولا تقعـدْ على هذه الغفـارة المغيَّرَة . فازالها واعطاها لمولاها ، وقال له : ما تغيُّرها . قال له : لأنها تُعقد بالنجاسة . »

واراد علي بن يوسف ، وقد تأثر بهذا الرجل غير العادي ، ان يحصل على مزيد من المعلومات عنه . فاعدَّ مناظرةً بينه وبين بعض الفقهاء المرابطين ، ومن بينهم مالك بن وهيبْ ، وهو عالم اندلسي وُلد في اشبيلية . وفي اثناء المناظرة ، ظهر ابن تومرت على خصومه وأفحمهم . وقد اغتاظ ابن وهيب كثيرا نتيجة لذلك ، والحَّ على السلطان بثقافه . وكان عليٌّ يوشك ان يأمر بذلك ، لولا تدخل اثنين من وجوه المرابطين ـ أما لماذا تدخلا ، فلا احد من المؤرخين يفسرُ ذلك ـ ونجحا في تبديل العقوبة الى التغريب عن المدينة . ثم اقام ابن تومرت في جبَّانةٍ مدَّعيًا انه لم يعدْ في ارض السلطان ، وانما في ارض الموتى . الا انه حتى اولئك الذين كانوا قد شفعوا له طلبوا اليه ان لا يتمادى في استهزائه بسلطة الأمير ، وعندئذ اخذ في التوجه نحو سلسلة جبال الأطلس (25) .

وفي نحو هذا الوقت اتَّضحتْ افكار ابن تومرت ، فقد أراد من المرابطين ان يسلكوامسلكهفي تصوُّره للشريعة الاسلامية . أما إذا لم يوافقوا على اتباع نصيحته ، فانه سوف ينهض لمقاومتهم ـ ولكن كيف ؟ لعله لمْ تكن لديه فكرة محددة حول هذه النقطة ، ولكن من المعلومات التي كان قد جمعها في رحلته ، يحتمل ان يكون قد خُيِّل اليه انه قد يعتمد على قبائل مصمودة في

---

(25) البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 68 ـ 69 .

جبال الأطلس الأعلى . الا انه كان عليه قبل ان يرسم خطة لذلك ، ان يستطلع مشاعرَ هذه الجماعات القبلية . ولذلك ، فانه حالما شعر بانه لم يعُدْ يأمن على حياته في مدينة مراكش ، قصد جبال الأطلس ، وجابهَا شهورا جاذبًا اليه اتباعا عديدين ، بما فيهم ابو حفص عمر إنْتي الذى قُدِّرَ له ان يقوم بدور مهم جدا في إنشاء امبراطورية الموحدين (26) . الا انه يبدو ان من انضموا اليه بادىء الأمر لم يكونوا الا افرادا قلائل فقط ولم تتبع اي من القبائل تعاليمه ، ولذلك فانه ادرك بان الوقت لم يحنْ بعد للشروع في ثورته على المرابطين. وبالتالى، فانهاستقر في مسقط رأسه اجيليز (انظر أسفله)واخذ في ايفاد الرسل الى قبائل مصمودة للاعداد لما اختمر وقتها في ذهنه ، ألا وهو إسقاط امبراطورية المرابطين . ومع ذلك ، فان المرابطين لم يكنْ في وسعهم تقبلْ تعاليمه واصلاحْ معتقداتهم وأعرافهم لتتّفق مع عقيدته .

أكَد ابن تومرت في دعوته تاكيدا قويا على النظرية الاسلامية بشأن المهدي ، اي النظرية القائلة أنّ رَجلا سيرْسله الله تعالى الى الأرض قبل قيام الساعة لتوحيد بني البشر في ظل الاسلام ، وللاعداد لمصيرها النهائي . ونتيجةً لوعظه . نادى به اتباعه الأوائل مَهْدِّيًا حوالي نهاية عام 515 هـ/1121 م ، ثم قبلتْ به فيما بعد بعضُ قبائل البربر في جنوب المغرب الأقصى . ويروي لنا مؤرخ من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، اعتمد على مصادر سابقة ، ما حدث كالآتي :

---

(26) عن رحلته هذه عبرّ سلسلة الأطلس من قرب مدينة مراكش الى المحيط ، أنظرْ البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 70 ـ 72 .

(IGILLIZ)

« ولما كان بالسوس الأقصى .. قام فيها خطيبا وقال : الحمدُ لله الفعَّال لما يريد ، القاضي بما يشاؤه ، لا رادَّ لأمره ولا معقِّبَ لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشرَ بالامام المهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما مُلئتْ جَوْرًا وظلما . يبعثه الله الى نسخ الباطل بالحق ، وان يلي مكانَ الجور العدلْ . والمغربْ الأقصى منبتُه ، وزمانُه آخرْ الزمان ... » .

« سمعتْ الخليفة عبد المؤمن يقول : لما فرغ الامام المهدي من كلامه هذا ، بادر اليه عشرة رجال من اتباعه الملازمين له ، كنتْ انا واحدًا منهم ، فقلنا له : يا سيدي ، هذه الصفة لا توجد الا فيك ، فأنت هو المهدي . فبايعناه في اثناء ذلك على ما بايع الصحابةُ رسولَ الله صلىّ الله عليه وسلّم ، وان يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع . فبايعه إصحابه العشرة تحت شجرة خروب ، وتتابع البربر بعد ذلك عليه بالمبايعة على ان يقاتلوا عنه ، ويبذلوا انفسهم دونه . فعرّفهم بما في ذلك من الأرزاء والمِحن والقتل والفتن ، فالتزموا ذلك .. وسمى اصحابه اثر بيعته بالمهدية » (27) .

وفي نفس الوقت الذي حظي فيه ابن تومرت باكبار البربر ، عن طريق المهديَّة ، لبعض مبادىء العقيدة والتقريع ذات الطابع الخلقي ، فانه اثَّر ايضًا فيهم من الداخل . والآن وقد عاد الى موطنه ، فانه كان يدرك جيدا ما فيه من مواطن ضعف حاول معالجتها ، كما كان يعرف كذلك ما فيه من تعقيدات وحساسيات ودوافع خفيَّة . وكما يذكر المؤرخون كلهم تقريبا ، فانه لم يَنْسَ لسانَ قومه بل استعمله بإتقان . ولم يكنْ يخفى عليه سر من أسرار قبيلته هرغة او القبائل المجاورة ، كما ان اعماله فيما بعد تدلُّ على انه لم

(27) الحلل الموشية ، انظر في موضعه ، ص 87 ـ 88 .

يواجه صعوبة في معرفة وادراك الوضع السائد بين قبائل جبال الأطلس الأعلى ، مع انه لم يسبقْ له ان عاش هناك ، وهذا يدل على الوحدة الأساسية لقبائل مصمودة .

اننا لا نرغب في التقليل من قدرة عقيدة ابن تومرت على التأثير على تفكير أعداد كبيرة من الناس ، فقد كان أثرها كبيرا ، وبالتأكيد فانها قامتْ بدور مهم في ما أحرزه من نجاح متزايد . الا ان الداعية كان كذلك من ابناء البلاد ، واستطاع بمعرفته الوثيقة للوضع والسكان ، وحذقه فضلا عن ذهنه المدبر للمكائد ، ان يستغل اي وضع ، وخصوصا الوضع المحلي ، بقصد إقحام نفسه لينال الحظوة لدى مواطنيه . ان من ابرز الصفات التي كان يتحلىَ بها ابن تومرت قدرتَه على ان يجمع بصورة مقنعة المعلومات العقيدية التي اكتسبها في المشرق ، ومثالية الاصلاح الديني الذي قام به ، والذي كرّس نفسه له ، وفهمه العميق للبلاد التي وُلد فيها .

سمع المرابطون عن دعوته ونجاحها بين البربر فحاولوا استئصال هذه الحركة الدينية والسياسية الجديدة ، وأرسلوا جنودا الى إجيليز . وفي كل مرة كان ابن تومرت يفلت من الجيش المرابطي ، في آخر لحظة احيانا ، بمعاونة عدد متزايد من رؤساء البربر ، وكان من بينهم ابو حفص عمر إنتي . بيْد انه سرْعان ما قرر بانه ليس في مأمن في إجيلزَ ، فقصد ، في عام 518 هـ/124 . على ما يحتمل . مكانا يسمى تنمل Tinmel) أو تينملال Tinmallal) في قلب جبال الآطلس الأعلى في أعالي وادي نفيس .

وهناك شهدت حركة الموحدين بحق تطورها الكامل على يد ابن تومرت وطلبته ، مع ان هؤلاء كانوا مجرد ادوات في يدي المعلم الذي كان الروحَ

الموحية للجماعة الجديدة . وتنمل ضيعة صغيرة في واد ضيّق كانت تتلاقى فيه ضياع صغيرة اخرى . وكانت تسكن تنمل قبائلُ من مصمودة ، وكانت الجماعة الدينية الجديدة في مأمن تام هناك . وفي الحقيقة فان المرابطين لم يفرضوا سلطانهم قط على تلك الناحية لأن جنودهم ، ومعظمهم من الفرسان ، لم يشعروا بالراحة في بلاد جبلية كتلك . وفضلا عن ذلك فانه كان من السهل جدا على البربر ان يغلقوا المسالك الجبلية العالية والوعرة المؤدية الى تنمل . وهكذا استقر ابن تومرت في معقل طبيعي منيع (28) واصبح في مركز يمكّنه من نشر عقيدته بين قبائل البربر من حوله . ولذلك الغرض يبدو انه جهَز مجموعة من الدعاة الذين أوفدوا الى القبائل النائية في الجبال (29) واخذوا في وعظ الأهالي بلسان البربر .

ولكن ما الذي يمكننا قوله عن عقيدة ابن تومـرت ؟ (30) ان افـكاره الدينية معروفة لدينا عن طريق تواليف نُسبتْ اليه وجمعت في مخطوط يرجع تاريخه الى اواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . وقد نَشرَ هذا المخطوطَ في سنة 1903 م باحـث فرنسي من الجزائـر جان ـ دومنيك لوسياني بعنوان : كتاب ابن تومرت (انظر أسفله) . ان المميزات الرئيسية

---

(28) عن وصف لتنمل ، انظر هنري باسي وهنري تراس : رباطات ومعاقل الموحدين ، باريس 1932 ، ص 1 ـ 8

(29) المراكشي : المعجب ، ص 187 .

(30) حول عقيدة ابن تومرت ، انظر1 . جولدزيهر : كتاب المهدي بن تومرت . وكذلك المقالة بعنوان (MATERIALIEN ZUR KENNTNISS DER AL MOHADEN BEWEGNNG) في (ZDMG) العدد 41 (1887) ومقدمة (كتاب المهدي بن تومرت) ، انظر في موضعه ، ص 1 ـ 102 .

(LE LIVRE D'IBN TUMART)

لتلك العقيدة ، اذا جاز لنا ان نعبّر عن رأينا بصراحة ، لا تتصف بالأصالة إطلاقا - فصاحب المصنَّف يعلن باستمرار وحدة الله تعالى وعدم اتصافه بالصفات الجسمانية ، مع الضرورة المطلقة للامتثال لأوامره . انما الشيء الأصيل في هذا ليس الافكار ذاتها بل الرغبة في تطهير العقيدة الاسلامية مما افسده الزمان ، وتحقيق ذلك عن طريق المصادر الصحيحة الوحيدة ، الا وهي القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . وفي الوقت ذاته ، عرضت على المسلمين بعض المبادىء الفهية على الأقل . ولو لم يحاول تلقين عامة الناس في المغرب الأقصى الفقه الاسلامي ، وهي فكرة أشعرية ، ولو لم تظهر فكرة المهدي ، لصعب على المرء ان يدرك السبب الذي من اجله اعتبر ابن تومرت خارجيا او مارقا من قِبلَ الكثيرين من معاصريه (31) . ان فكرة المهدي فكرة سنيَّة في حد ذاتها ، اما ما هو غير سنّي - بل هو فكرة شيعيّة - فهو القول بان المهدي امام معصوم ، وهذه احدى المبادىء الأساسية في تعاليم ابن تومرت .

وحينما نقرأ (كتاب ابن تومرت) ، وفيه عرض للآراء بصورة متفرقة وبأسلوب عقيم مطروق ، لا يسعنا الا ان نعجبَ لنجاح ابن تومرت بين مواطنيه ، ونحن مقتنعون بان قوة اقناع خارقة لابد انها صدرت عنه حينما كان يتكلم . ان بلاغته كانت حقا قادرة على اثارة نفوس مستمعيه من البربر البسطاء . وفضلا عن ذلك ، فان المؤرخين يصفونه بانه خطيب مُفوَّه ،

---

(31) حتى في المشرق اعتبر ابن تومرت خارجيا . انظر حول هذه النقطة مقال ف . جابرييلي بعنوان : اصل حركة الموحدين في مصدر تاريخي مشرقي ، مجلة (ARABICA) العدد 3(1956)، ص 1 - 7 .

ويقولون انه كان بليغا بالعربية والبربرية على حد سواء .

الا ان قدرته على الاقناع لم تكنْ فقط نتيجة لبلاغة فعَّالة وعقيدة صارمة لقيتْ قبولا لدى البربر . فمناوأته للمرابطين كانت عاملا مهما في نجاحه . فقد اعتبرهم مجسِّمين ، اي انهم في نظر الفقهاء المسلمين يتهمون بارتكاب اعظم إثم يمكن للانسان ان يقترفه ، ودعا علَنا الى القيام عليهم . ويبدو بوضوح ان عقيدة المهدي الدينية لقيتْ استجابةً سريعة بين البربر الجفاة الخشنين ، الا ان دعوته للثورة على المرابطين كانت بالتأكيد اكثر اسلحته فعالية بين المصامدة . ففي باديء الأمر على الأقل ، يبدو ان دعوة ابن تومرت لقيتْ صدى لدى سكان جبال الأطلس لأنها كانت ذات جانب سياسي وكانت معادية للسلطة المركزية التي كانت دائما موضع استياء من قبل البربر .

كما ان للمرء ان يفترض ان شيئا من العداء العرقي كان يفصل مصمودة عن صنهاجة ، او ، حسب تقليد قديم قِدَم الانسان ، ان الموحدين من سكان الجبال كانوا يحملون في صدورهم الازدراء الشديد ، المقرونَ بالغَيْرة ، لسكان البسائط او الأراضي السهلية ، بما فيهم المرابطون من اهل الصحراء سابقا .

ولم يَدْعُ ابن تومرت إلى عقيدة فحسب ، بل حاول ايضا ان ينظِّم جماعة جديدة في تينمل وما حولها . وفي ذلك يكمن ما لحركة الموحدين من اصالة واستهواء . وكان من بين الصعوبات الكبيرة التي واجهتْ ابن تومرت ان مجتمع البربر في جبال الأطلس الأعلى كان منقسما الى وحدات صغيرة جدا تقوم بين الواحدة والأخرى خصومات قديمة مستعصية . وقد لجأ المهدي ، الذي كان يعرف مجتمع البربر معرفة جيدة ، الى وسيلتينْ لتحقيق الوحدة

التي كان يحلم بها : فقد احتفظ بالبيئة الاجتماعية التقليدية التي لم يكن ليتسنى تحقيق شيء بدونها . الا انه استطاع أن يستحدث نظاما دقيقا للطبقات بين الفئات المختلفة في ذلك المجتمع . نظرا لسلطته المعصومة بوصفه المهدي . وعن طريق هذا النظام ، قصدَ ان يخفف من حدة الخصومات التقليدية . وبالاضافة الى ذلك ، فانه اقام جنبا الى جنب مع نظام الطبقات العرْقي نوعا من النظام الفني للطبقات . بغرض فرض التعاون بين الافراد الوافدين من القبائل المختلفة . وهم افراد ما كانوا ليعملوا معًا حتى ذلك الوقت .

لقد اهتم بدراسة موضوع نظام طبقات الموحدين بعض الباحثين الغربيين . وحقَ لهم ذلك ، إذْ يمكن اعتباره نوعا من واسطة العقد لحركة الاصلاح الموحدية . ولعله الفكرةُ العبقرية الحقيقية التي اظهرها ابن تومرت .

وبدلا من ان يكتفي ابنْ تومرت بالنفوذ الشخصي الذي كان قد استطاع أن يفوز به كمهدي معصوم . نجح كذلك في ان يقيم في مجتمعه البربري الصغير ما يمكن تسميته بنظمٍ جديدة . وقد بقيتْ هذه النظم بعد وفاته ، وكانت ما تزال قادرة على البقاء حينما تسلَّم عبد المؤمن مهامَ السلطة .

ولسوء الحظ . فان هذه القضية لم يتمَ توضيحها تماما بعد ، حتى بعد الدراسات المسهبة التي تَمت في الموضوع . كتلك التي قام بها أمبروسيو هويثي ميراندا (32) و ج.ف.ب. هوبكنز (33) . وفي الحقيقة ، فان اقدم

---

(32) هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين ، الجزء الأول ، انظر في موضعه ، ص 100 ـ 105 .

(33) ج.ف.ب.هوبكنز : النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى ، تعريب امين الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، 1980 ، الفصل الخاص بطبقات الموحدين .

ثلاثة مصنِّفين تناولوا بالذكر طبقات ابن تومرت ـ وهم صاحب (كتاب الأنساب) (24) وابـن القطـان (35) والمراكشي (36) ـ يوردون روايات متناقضة . وهي إجمالا ليست واضحةً كل الوضـوح . الا انـه يبـدو ان تغييرات عميقةً أُدخلتْ على نظام الطبقات في المدة ما بين فترة ابن تومرت ونهاية حكم عبد المؤمن . ولا نعلم ذلك من الوثائق بل نستمدُّه منها عن طريقِ الحدْس والتخمين . ولذلك ، فانه ليس من السهل اعطـاءُ صورة دقيقة ، او كافية عن الجهود التي بذلها ابن تومرت لاعادة التنظيم ، ولكن المرء لا يستطيع ان ينفي النتيجة النهائية .

ويتفق الجميعُ على شيء واحد ، وهو ان المهدي صنَّف الموحدين في طبقات تختلف عن المجموعات القبلية التقليدية . ولا يعني ذلك انـه قضى على القبائل ، لأن محاولةً من هذا القبيل كانت ـ فيما يُحتمل ـ ستكون غير مجدية في ذلك الوقت ، بل يبدو انه حاول انقاص تأثير المجموعات القبلية بان اقام فوقها اشكالا تنظيمية اخرى كانت تتمشَّى في بعض جوانبها مع الأنمـاط البربرية ، وكانت لها بالتالي إمكانية التقبل والسماح لها بالترسخ . ومجلسُ او اهل الخمسين هو خير دليل على ذلك : فقد شُكِّلت جمعية تضم نحو خمسين عضوا يمثلون ما يمكن تسميته بالقبائل المؤسِّسة لحركة الموحّدين ، وهي بعبارة أخرى تلك القبائل التي ساندت المهدي بُعيْدَ استقراره في تنمل . وكان من حق جماعتين ان يكون لهما ممثلون اكثر من غيرهما ، وهما قبيلة هرغة ، وهي

(34) ليفي ـ بروفنسال : وثائق لم تُنشر عن تاريخ الموحدين ، ص 29 ، 32 ـ 48 .

(35) ليفي ـ بروفنسال : ست قطع لم تنشر ... انظر في موضعه 2 ، ص 340 ـ 343 .

(36) المراكشي : المُعجِب ، انظر في موضعه ، ص 188 ، 341 ـ 343 . اما المصادر الأخرى عن تنظيم الموحدين ، فانها لا تفعل اكثر من اعادة اقتباس واحدة او اكثر من هذه الوثائق .

قبيلة المهدي وفيها بدأ حركته . وكذلك « أهل تنمل » الذين رحبوا به حينما لجأ اليهم . ومما يجدر ذكره ان « أهل تنمل » لم يضمُّوا أُسرًا متجانسة بل كانوا يضمون عددا كبيرا من الأغراب الذين انتسبوا للحركة . ان مثل هذا المجلس يتفق مع التقليد البربري أيْت اربعين (أبناء الأربعين) من ناحية حجمه ودوْره السياسي وتمثيله النسبي لمختلف العناصر . الا انه تجاوز الإطار المعتاد لجمعيات البربر . لأنه وحَّد عناصر كثيرا ما كانت تعارض بعضها البعض في الماضي . فضلا عن ادخال « الغرباء » المقيمين في تنمل في الحركة او آخرين يطلق عليهم ابن القطان هذه التسمية . (37)

وبالاضافة الى ذلك ، أُنشئتْ طبقتان لم تكن لهما صلة بالنظم التقليدية للمصامدة ، وهما (اهل الدار) ، وهي شبيهة بمجلس خاص كان يعمل بالتعاون مع البيت المالك ، و (العشرة) وهم الأتباع الأصليون الذين انضموا الى ابن تومرت اثناء اقامته بالمغرب قبل ان يستقر في اجيليز . وثابت من الرواية المأثورة ان (العشرة) كانوا اول من اعترف به مهديًا ، وكان من بينهم الرجال البارزون في الحركة ، وخصوصا عبد المؤمن وابو حفص عمر انتي والبشير الونشريسي .

ان معلوماتنا ، والحق يُقال ، حسنة نسبيا عن تلك الطبقات الثلاث ، بحيث نستطيع ان نرى بوضوح كاف ما كانت تمثِّله بالفعل ، كما ان معلوماتنا كافية عن تسلسل القبائل للتمييز، وايضا للقتال على ما يحتمل ، الا ان علينا الاعتراف باننا لا نعرف اكثر من اسماء الاصناف الاخرى في طبقات الموحدين ـ المحتسبون والمزاور والغزاة واهل الحزب الخ .. وقد درس

(37) ابن القطان : نظم الجمان ، انظر في موضعه ، ص 32 .

هوبكنز بكل عناية مختلف المعلومات التي وصلتنا عن تلك الاصناف وحاول ان يوضح ما تخُفيه اسماؤها ، الا انه لم يحالفْه التوفيق دائما ، كما يعترف هو بنفسه ، لأن المعلومات المتوفرة من الغموض والتناقض بحيث لا تسمح بأي تاكيد حول مكان هذه الأصناف في نظام الطبقات .

ويمكن القول مع ذلك بأن المشاغل العسكرية لعبتْ دورا كبيرا في استكمال المبادىء التي استرشد بها ابن تومرت ، كما اكَّد ذلك روبرت مونتان (38) : ان هذا يتضح من المدلولات العسكرية للكلمات (غزاة) ، (طبَّالة) ، (رماة) و (جند) .

وفضلا عن ذلك ، فان ابن تومرت قرر شخصيا تدريب جماعة اخرى من الشبان تمَّ اختيارهم على اساس مقدرتهم غير العادية ، واهتماماتهم الفكرية السابقة ـ الطلبة والحفّاظ ، وتبيِّن الكلمتان المستعملتان لهذين الصنفين مكانتهما في الحركة . وتدل الرسائل الرسمية الموحدية ، التي كثيرا ما كانت تُوجَّه الى الشيوخ والطلبة في مدينةٍ او ناحية ، على ان عبد المؤمن كان يولي اولئك الرجال اهمية بالغة . وتبينٌ لنا فقرةٌ في كتاب (الحُللَ الموشية) (39) اهتمامَ عبد المؤمن بتنظيم الحفَّاظ ـ وعددهم 3000 حافظ ـ في شبه مدرسة لكبار الموظفين او مدرسة للادارة بموجب نظام لم يكُنْ في اغلب الظن معروفا في ذلك الوقت .

---

(38) مونتان : البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى ، انظر في موضعه ، ص 63 .
(39) الحلل الموشية : انظر في موضعه ، ص 125 .

ومهما بقيتْ تفاصيل التنظيم الذي اقامه ابن تومرت غامضة ، فمن المؤكد انه في اعادة التنظيم هذا ، قد حاول التقليل من تأثير الاطار القبلي التقليدي إنْ لم يحاول القضاء عليه كلية . ومن المؤكد انه لم تخطُرْ بباله التطورات الهائلة التي قُدِّر لها ان تحدث في امبراطورية الموحدين فيما بعد ، والحق يقال ان نظام طبقاته لم يكيَّف لكيان سياسي واسع من هذا القبيل ، بل كان قد كُيِّف فقط لجماعة من قبائل البربر في جبال الأطلس العالي . ومع ذلك ، فمن المحتمل ان التطورات التالية قد سهَّلتْها الى حدٍ كبيرٍ عملية اعادة التنظيم الأصلية ، اذ انها جعلت التعاون ممكنا بين قبائل ما كانت لتتعاون قط في ظل النظام السابق .

وفي تنمل ، كرَّس المهدي واصحابه وقتهم لنشر العقيدة وتنظيم المجتمع الموحدي وقتال المرابطين . ولم يكنْ نشرُ العقيدة بالأمر الهيِّنً بالرغم من حسن نية معظم البربر ـ فقد كان هؤلاء الجبليّون أُمّيّين تماما ، وقد اعتادوا ـ دون مساعدة الغير ـ حلّ الصعوبات التي تعترض حياتهم الشاقّة ، وكانوا يمارسون ديانة بسيطة جدا مليئة بالخرافات القديمة ، وكانوا على غير استعداد لفهم رسالة المهدي ، وكانت أذهانهم اجمالا غير قابلة للاستجابة للأفكار المجرَّدة ، فضلا عن انهم لم يكونوا ملمِّين بالعربية . لذلك فان ابن تومرت وطلبته اضطروا لاستعمال اللسان البربري في مواعظهم .

كما اضطر المهدي الى اللجوء الى وسائل آلية لترسيخ بعض مبادىء العقيدة في أذهان ابسط الموحدين : فقد فَرضَ على اهل تينمل ، تحت تهديد العقاب ، أنْ يحفظوا عن ظهر قلبٍ كلَّ يوم سُورًا جديدة من القرآن الكريم .

الا ان الروايات المتعلقة بتلك المسألة ينبغي ان تُدرس بكل عناية لأن مصدرها كلها تقريبا اعداء اكيدون للموحدين كالمؤرّخ المشرقي ابن الأثير او صاحب (روض القرطاس) الذي كان مؤيدا دائماً للمرينيِّين ، ولذلك فان تلك الروايات معاديةٌ للموحدين .

ويبدو ان ابن تومرت اضطُرَّ الى ان يأخذ بعين الاعتبار طبيعة مستمعيه ، وان يستعمل لذلك وسائل تبتعد كثيرا عن الوسائل المعتادة التي يلجأ اليها الفقهاء والنخبة المثقفة . كما يبدو انه استعمل ، دون علمٍ منه ، ما ندعوه في يومنا هذا اساليب الاتصال بالجماهير . وهكذا فانه يُذكر انه كان يطالب كل فرد في جماعة من البربر بان يحفظ اولا كلمةً او كلمتينْ من آية قرآنية وكأنها اسمه . وكان هؤلاء الأفراد يصطفُّون بعد ذلك حسب نظام ورود الكلمات في الآية القرآنية ، ويُطلبُ اليهم ذكرُ اسمائهم المفترضة على التوالي ، وبذلك يكون الجميع في النهاية قد سمعوا الآية بنظامها الصحيح ، ولما كانت هذه العملية تتكرر لعدة ايام على التوالي ، فان الأمر كان ينتهي بحفظهم لها عن ظهر قلب . وهكذا تدريجيا باستعماله اساليب تعين على سرعة الحفظ ومكيَّفة حسب قدرات اهل الجبال من البربر ، غرسَ ابنُ تومرت في نفوسهم معلوماتٍ اوليةً كانوا يجهلونها تماما قبل قيام حركته .

ان مؤرخين كابن الأثير وابن ابي زرع قد يهزأون بمثل هذه الوسائل ، وقد لا يرون فيها الا ضربًا فجًا من الخداع ، الا ان الطريقة التي استعملها ابن تومرت تبدو حكيمة وفعالة في أعين مثقّفي القرن العشرين ، الذين لا يستطيعون التغاضي عن المشاكل المتصلة بأساليب ايصال المعلومات

للجماهير . لا بل ان المرء قد يذهب حتى الى القول بأن ابن تومرت يبدو مجدِّدًا حقًا بالنسبة لهذه النقطة ، كما هو الحال بالنسبة لنقاط كثيرة أخرى .

لقد اتُّهم ابنُ تومرت بالشعوذة من قِبلِ خصومه ، ولعله في بعض الأحيان لجأ الى الحيل للتأثير على عقول البربر الساذجة ، الا انه يبدو أنها لم تكن سوى حيلٍ صادرة عن حسن نية . إننا لا نقبل الرأي القائل بان ابن تومرت كان دجّالاً ليس له من دافع سوى الطموح .

وفي الواقع ، فانه حتى خصومهُ يُقرُّون بان حياته كانت حياةَ تقشُّفٍ تام ، وبأنه لم يحاول قطُّ ان ينشىء أسرة حاكمة : فهو لم يتزوج ابدا ، ولم يكن له ابناء قط بل إنه لم ينصِّب اقرباءه في مناصب سامية . لقد كانت شقيقته زينب (41) بالتاكيد من اكثر أمناء سره نفوذا ، الا انه ليس ثمة ما يدل على انها استغلَّتْ مركزها بأي شكل لتعزيز مصالحها الخاصة او مصالح زوجها وابنها . أما شقيقاه عبد العزيز وعيسى ، فانهما كانا عضوين من اهل بيته لا اكثر . واذا رأينا فيما بعد ان لهما دَوْرا يقومان به وثارا مرتين على عبد المؤمن (42) ، فان ذلك كان بمبادرةٍ منهما : فلا يَذكُر اي مؤرخ ان ابن تومرت كان قد وعدهما بأي شيء . لذلك فان من المستحيل ان نكتشف في اعمال المهدي ما يدل على انه كان شخصيا رجلا طموحا . إن من المؤكد انه رغب في ان يقود جماعة الموحدين نحو مثله الأعلى ، ولبلوغ ذلك الهدف كان لزاما عليه أن يوطد سلطته الشخصية . وفي رأينا ان هذا الموقف ناشىء عن

---

(41) عن زينب شقيقة ابن تومرت ، انظر ليفي ـ بروفنسال : وثائق لم تُنشرْ ، ص 30 ، 81 .

(42) انظر الفصل الثاني .

انه اعتبر ان الله تعالى اختاره بالتاكيد لتحقيق هذه الرسالة . وخلاصة القول ، فإننـا نعتقد انه كان مقتنعا بانه اداة في يد العناية الالهية ، وبانه قَبِلَ من تلقاء نفسه رسالته الدينية التي كرَّس لها جميعَ مواهبه ، بما في ذلك فطنة طبيعية لا يُمكن إنكارها .

ان إقامة نظام اجتماعي جديد فوق النظـام القـديم لم يتـمَّ دائما دون صعوبة ، فبعض القبائل مثلا أبتْ ان تقبل النظام الجديد ، وتولىَّ المهدي إرغامها على الانضمام الى الحركة . ويصف المؤرخون ، وخصوصا البيذق (43) وابن القطان (44) ، بعض الوقائع التي حدثتْ ، ويمكن افتراضُ انه جرتْ وقائع اخرى . وقد حاول ابن تومرت ـ الذي لم يكنْ مثاليا فحسب ، بل كان ايضا خبيرا ماهرا في اساليب القتال ـ استمالةَ مناوئيه في مجموعات صغيرة ، ولذلك فمن المحتمل ان مناوشات طفيفة ضد قرى او مجموعات صغيرة ضمن القبائل ، أغفل المؤرخون ذكرها ، كانت اكثر المناوشات التي قام بها عددا . وعلى اية حال ، فان المرء يمكنه بالتأكيد ان يتحدث عن العمليات في المنطقة الجبلية حول تنمل على انها عمليات فتح عسكرية . وقد تكلّلتْ هذه الحملة بالنجاح اثناء حياة المهدي بمساعدة القبائل الموالية ، وهو ظفر تمَّ لا ضد المرابطين الذين لم يكنْ لهم جنود او معاقل في سلسلة جبال الأطلس ، وانما ضد قبائل البربر التي قاومتْ سلطة ابن تومرت .

وحتى بمساعدة القبائل الصديقة ، فان مهمة المهدي لم تكن هيِّنة بأية حال ، ولم يُكتبْ لدعوته أبدا الظفر النهائي ، ذلك لأن الفردية القوية بين اهل الجبال كانت دوْما تتحدى سلطته . ويتفق جميع المؤرخين تقريبا ،

---

(43) البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 76 ـ 77 .

(44) ابن القطان : نظم الجمان ، ص 82 وما بعدها .

المؤيدون منهم للموحدين والمعارضون لهم على حد سواء ، على انه في ختام حياة ابن تومرت في شتاء عام 534 هـ/1129 ـ 1130 م ، قرر ان يعالج نهائيا حالة عدم الاستقرار بين القبائل بالقيام بعملية تطهير خطيرة . وقد عهد بهذه المهمة الى البشير الونشريسي ، وهو اول رفاقه وأشدهم ولاء (45) . ويُسمِّي كل المؤرخين العملية بالتمييز ، وكانت تشمل مبدأين : إعادة تنظيم او تأكيد نظام القتال لقبائل الموحدين ، واستئصالاً داميا لعدد كبير من المخالفين ، او من كان حماسهم فاترا نحو الدعوة .

ويحتمل ان تكون الرواية التالية التي أوردها البيذق (46) روايةً مخفَّفةً ودون ما تمَّ فعلا . ويلاحظ ان المؤلف لا يورد وصفا للضحايا ، ولعلَّ السبب هو كثرة أعدادهم ، كما انه تردَّد في إعطاء تفاصيل عن اعمال القتل الجماعي ، وهي اعمال لم يُعلِنْ عنها المهدي بالتاكيد : « ثم اقام اياما عدة ، فاكرم الله المهدي بدعوة البشير ، فأمر بالتمييز . فكان البشير يُخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب . ورأى الناس الحقَّ عيانا ، وازداد الذين آمنوا ايمانا .. وكان تمييزُ البشير للخلق من يوم الخميس الى يوم الجمعة بعد اربعين يوما . فمات يومئذ من الناس خمسُ قبائل ... » ثم يورد المؤلف اسماءَ القبائل التي صُفِّيتْ وأسماء الأماكن التي تمَّ فيها ذلك .

والى جانب هيبة المهدي الشخصية ، فان هذه الاجراءات التعسفية يبدو انها بدلا من ان تهدِّد جماعة الموحدين ، فانها عزَّزتْ من تماسكها .

---

(45) حول هذا التطهير ، انظر ليفي ـ بروفنسال : وثائق لم تُنشرْ ، ص 35 ـ 37 .

(46) البيذق : كتاب اخبار المهدي ابن تومرت ، ص 78 .

ومن الواضح ان المهدي نفسه اعتقد ان قوته ازدادتْ ، اذ قرر في ربيع عام 525 هـ/1130 م ان يهاجم مدينة مراكش عاصمة المرابطين . وكان قد اكتفى قبل ذلك بصدِّ هجماتهم التي لم تتغلغل قطُّ مسافةً بعيدةً داخل جبال الأطلس المعادية لهم . اما السبب في تجنب المرابطين المبادأةَ بالهجوم ، فيرجع الى طبيعة تكوين جيشهم الذي كان معظمه من الفرسان . ولما كانت اودية جبالِ الأطلس هي في معظمها ضيِّقة وغيرِ مستوية دائما تقريبا ، فانها لم تكنْ ارضًا صالحة لمناورات الفرسان . وكان منَ السهل سَدُّ الشِعاب في الجبل ، وحتى لو بقيتْ مفتوحة ، فان ذلك كان لا يسمح للفرسان الا بالتقدم ببطء مما يعرِّضهم لمزيد من المخاطر . وقد جرتْ محاولات لدخول الجبال ، الا انها انتهتْ بفشلٍ ذريع (47) ، وبالتالي فان المرابطين سرُعان ما تخلَّوْا عن وسيلة غير مجدية ، لا بل إنها كانت على العكس من ذلك باهظةَ التكاليف في الأرواح والعتاد الحربي .

ثم إنهم حاولوا إبقاء المنافذ المؤدية الى السهل مغلقةً ببناء معاقل عند مداخل الأودية الرئيسية لجبال الأطلس في الشمال ، وأشهرها المعقل الكائن في تَسْغيموت الذي ما زال جانب مهم من اطلاله قائما (48) . ولأسباب نفسانيةٍ وعملية ، لم يقبلْ ابنُ تومرت الاهانةَ بان يظل مطوَّقا في جباله ، اذ ان التجارة بين اهل الجبال وبين القبائل في السهول كانت احد المظاهر

(47) المصدر نفسه ، ص 74 ـ 75 .

(48) درس معقل تسغيموت هنري باسيه وهنري تراس في مقالها بعنوان (رباطات ومعاقل الموحدين) في مجلة (هسبريس) ، العدد 7 (1927) ، ص 157 ـ 171 . كما تناوله بالدراسة شارل ألين وجاك مونييه في مقال بعنوان (ابحاث اثرية عن تسغيموت) في مجلة (هسبريس) ، العدد 38 (1951) ، ص 381 ـ 405 .

الرئيسية للحياة الاقتصادية في الجبال ، ولا يمكن قطعُها زمنا طويلا . ومن ناحية اخرى ، وبسبب المعارضة التي ظلَّتْ تؤدّي بالقبائل للثورة ضد زعامة المهدي في الجبال ، وهي المعارضة التي لم يُقْضَ عليها قضاءً مُبرما بالتطهير الذي قام به البشير ، فان المهدي على ما يُحتمل شعر بان عليه ان يعمل شيئا ليصرف اهتمام القبائل الى الخارج ـ وهي وسيلة معروفة في مثل هذه الظروف ـ وليؤكد لأعدائه أنه بلغ من القوة والجرأة درجة تمكّنه من انتزاع السلطة من ايدي المرابطين . لذلك فانه جهَّز حملة عسكرية قوية ضد مدينة مراكش . ولعل الموحدين كانوا في منعة عمليا في جبالهم ، الا انهم لم يعتادوا القتال في العراء . ومع ذلك ، فانهم أحرزوا نجاحا مبدئيا عند حافة الجبال ، وقد شجَّعهم ذلك على التقدم نحو مدينة مراكش ومحاصرتها . واذ فوجىء المرابطون بذلك ، أحتَموْا داخل عاصمتهم المسوَّرة ، وقصروا جهودهم على مقاومة تغلغل الموحدين . الا انه بعد ذلك بقليل ، تلقّى السلطان المرابطي تعزيزات من عدة اماكن في المغرب الأقصى ، فأمرها بالهجوم . وجرتْ وقعةٌ تحت أسوار مدينة مراكش في مكان يُسمَّى البُحـيرْة ، وكان ذلك على ما يُحتمل في 2 جمادى الثـانية 524 هـ/13 مايو 1130 م (49) . وفي هذه المعركة تمتَّـع فرسان المرابطين بحرية الحركة ، ومن المحتمل ان الموحـدين كانوا أقلَّ عددا . وعلى اية حال ، فان المعركة أسفرتْ عن هزيمة شنيعة مُني بها انصارُ المهدي الذين لم يكنْ أمامهم من سبيل للنجـاة سوى الفـرار بسرعة صوب جبال الأطلس ، مخلِّفين وراءهم في ساحة القتال عددًا كبيرا

(49) حول وقعة البُحيرْة ، انظر هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين ، انظر في موضعه ، الجزء الأول ، ص 8 ـ 84 . كذلك جاستون ديفيردون : مراكش منذ تأسيسها حتى اليوم ، الجزء الأول ، ص 155 ـ 157 .

من القتلى ، من بينهم البشير . وأصيب عبدُ المؤمن وأبو حفص عمر إنْتي بجروح ، الا انهما تمكّنا من النجاة .

وقد ظلَّ المهدي هادئا حينما علم بهذه الهزيمة ، ولم تتزعزعْ ثقة جماعة الموحدين بشكلٍ ملحوظ نتيجةً لهذه الضربة المفزعة ، مما يدلُّ على ان تأثير ابن تومرتَ كان بالفعل عميقا جدا .

الا انهم كانوا على وشك اجتياز اختبار صعب : فقد اعتلَّ ابنُ تومرت وتوفي بعد وقعة البُحيرْة ببضعة شهور . إن التاريخ المتفق عليه إجمالا لوفاته هو 5 أو 6 رمضان 524 هـ/13 او 14 اغسطس 1130 م . وفضلا عن ذلك ، فالمتّفق عليه إجمالا هو أن المهدي توفي في ظروف غامضة ، اقتضتْ ان لا يعلمَ احدٌ بوفاته لبعض الوقت ، باستثناء خمسة رجال كان من بينهم عبد المؤمن (50) . وقد قرّروا كَتْمَ خبرِ الوفاة والسلوك وكأن المهدي على الرغم من مرضه وملازمته الفراش ، كان سليماً معافىً ، وما زال يُصدر الأوامر ويقود الجماعة . وانقضتْ سنتان او ثلاثُ سنوات قبل إعلان نبإ الوفاة ، وتسمية عبد المؤمن خلَفًا له . ويبدو جليا ان زعماء الموحدين بهُتوا لوفاة المهدي المباغتة ، فكتموا الخبر طيلة الوقت اللازم للاتفاق على من يخْلُفه . ومع ان هذا افتراضٌ يمكن قبوله ، فمن الغريب مع ذلك ان يُسمح لهذا الوضع غير العادي بالاستمرار فترة طويلة . ان البيذق يقول جازما إن المهدي كان « مريضًا » ثلاثة اعوام (51) ، اما ابن القطان ، الذي بُدِّلَ نصُّه ، والمراكشي فانهما لا يذكران فترة كان منصب الامامة فيها شاغرا ،

---

(50) البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 81 .

(51) المصدر نفسه ، ص 81 .

وليس ثمة من أمل الآن في الحصول على اجابة عن السؤال الخاص بموضوع شغورها .

ومهما يكنْ من أمر ، فان ابن تومرت ترك عمله دون ان يكمله ، ولعله لم يبدأ فيه ـ اذ انه أخفق في غرضه الرئيسي ـ ولم يتحقَّقْ لهالنجاح فيالإطاحة بـدولة المرابطين . ومع ذلك ، ومع عدم تمكنه من تحقيق هذا النصر ، فانه كان قد صنع اداة النصر . فبدلاً من تلك القبائل الصغيرة التي تسودها الفوضى والتي كانت تعيش في منطقة جبال الأطلس قبل زمنه ، ترك في تلك المنطقة جماعة من نوع جديد تماما ، كانت ـ على الرغم من حداثة عهدها وغضاضتها ـ من القوة بحيث تقوى على البقاء بعد كارثـة الهجـوم على مدينة مراكش ، وبعد وفاة المؤسِّس . ان هذه الجماعة الموحدية كانت في عام 524 هـ/1130 م ما تزال جماعة بربرية خالصة ، لأن ابن تومرت كان قد احتفظ بعدد من النظم البربرية الصرفة ، كجمعيات الحكم ، كما احتفظ بالعرف الخاص بهيبة كل قبيلة الخ.. الا ان جماعة تنمل لم تكنْ مجرد جماعة بربرية ، بل إنها كانت اوسع من ذلك وشيئا مختلفا : لقد كانت جمعية دينية مبدأهـا الوحـدة ، وكان العنصر الرابـط لهـا موهبـة المهـدي وشخصيتـه العظيمتينْ . وبكل تاكيد ، فان الاسلام الصارم والمتقشف الذي دعا اليه ابن تومرت كان قد عمل الشيء الكثير لتوحيد قبائل البربر في جبال الأطلس الأعلى ، وللمرء ان يتساءل ما اذا لم تكُنْ سطوة المهدي وطاقته حتى أكثرَ تأثيرا في بلوغ هذه النتيجة . وبودِّنا ان نحصل على تفاصيل اكثـر دقـة وحيوية وواقعية عن هذا الرجل غير العادي : فقد كان زاهدا دون ان يكون صوفيا بحال ، وكان رجلا بليغا دون ان يكون خطيبا رسميا ، وكان حادا

دقيقا فاتنًا بالتأكيد لا ينثني في أوامره ، ولكنه كان ايضا رؤوفا ، بحيث ألهم اهل الجبال الذين اعتادوا على خشونة الحياة وشظف العيش .

عند « وفاة » ابن تومرت ، لم تكنْ وحدة الموحدين مكتملة شاملة ، اذ انها انحصرت في بعض الأودية وفي بعض القبائل في منطقة جبال الأطلس . غير ان البذرة كانت مليئة بالحيوية والامكانيات . فما ان انقضتْ بعض السنين حتى نمتْ نموا سريعا بحيث امتدت رقعةُ امبراطورية الموحدين آخر الأمر واتسع نطاقها فشملتْ الشمال الأفريقي بأسرة . وما كان ليتسنى ذلك لولا الجماعة الجديدة التي انشأها ابن تومرت في تنمل .

وقبل القيام بدراسة تحليلية لامبراطورية الموحدين . فان من المستحسن ان ننظر الى الوراء وان نحاول ان نفهم حالة جماعة الموحدين حينما اختفى مؤسسها .

ليس من شك إطلاقا في ان شخصية ابن تومرت وصفاته ومواهبه وشعوره بالمسؤولية للدعوة كانت بالغة الأهمية في مولد الحركة . ان الكثيرين جدا من المؤرخين المُحدثين يُغفلون دور الأفراد في تطور المجتمعات ، ولا يأخذون بعين الاعتبار الا اعمال الجماعات او الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . ولا يعترض احد اليوم على ان تلك العوامل ينبغي تلقائيا ان تؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة الماضي ، الا ان ذلك لا يستلزم بالتالي ان يُقلَّل من دوْر بعض الأفراد فلا يعدو مجرد رمز . ويبدو ان سيرة ابن تومرت تشتمل في مضمونها على معانٍ مهمة في هذا الشأن .

صحيح انه حينما ظهر ابن تومرت على مسرح المغرب الأقصى لم تكنْ

بعض قبائل البربر راضية تماما عن نظام حكم المرابطين ، غير ان ذلك كان ـ بصورة رئيسية ـ عبارة عن حالة غامضة من الشعور بالضيق لم تتخذ ابدا ـ حتى ذلك الوقت ، في حدٍّ علمنا ـ شكلَ ثورة علنية . ويميل المرء الى الشعور بانه بدون تأثير ابن تومرت كان من الممكن ان يستمر الوضع مدة اطول كثيرا ، ذلك لأن عبء امبراطورية المرابطين لم يكنْ عبئًا تنوء به كواهلهم بحيث يمكن ان يثير ردود فعل عنيفة بسرعة . ففي عام 514 هـ/1120 م كانت امبراطورية المرابطين تنعمُ بحياة آمنة . وكان ابنُ تومرت هو الذي هيَّأ قوة غير عادية للشعور الكامن المعادي للمرابطين بين المصامدة . وقد حقَّق هدفَه باثارة القبائل ضد الهيْمنة عليهم من قبائل من البربر تنتمي الى جماعة تختلف عرْقياً عن جماعتهم ، وبأن بينَّ لهم ضعف مركز المرابطين من وجهة النظر الدينية ، ولذلك فانه يتحتَّم على المؤمنين الصادقين القيامُ على اولئك المرشدين الأشرار . وتمكّن من خلق قوة قوية بدمج ردود الفعل السياسية والأهواء العرقية وبإثارته للمشاعر الدينية عن طريق بلاغته .

وقد اضاف الى تلك القوة موقفا خلقيًا ، فندّد بترف السادة المرابطين المناقض للحياة البسيطة لأهل الجبال من البربر الذين اعتادوا حياة التقشف الشديد نتيجة لمعتقداتهم ونمط حياتهم . وهو وحده الذي أثار ، ثمَّ بَلْوَرَ المشاعرَ وردودَ الفعل الكامنةَ الكثيرةَ بين قبائل البربر في منطقة جبال الأطلس الأعلى .

ومع ذلك ، فليس من المؤكد انه كان باستطاعة ابن تومرت ان يبدأ حركة واسعة من هذا القبيل ، لو انه لم يستند الى القوة الكاملة للاسلام . وهنا

يـجازف المرء بالتحدث عن بلاد غير معروفة تقريبا ، اذ لا يتوفر لدينا سوى النزر اليسير من المعلومات عن نمو الاسلام وتطوره بين قبائل البربر (52) .

وكل ما نعلمه هو ان معظمهم ـ اذ اعتنقوا الدين الجديد في مثل ذلك الوقت القصير ـ فهموه بطريقتهم الخاصة ، وحاولـوا بوعـي نوعـا ما ان يكيِّفُوه ليلائم النمط السابق لحياتهم ومعتقداتهم . وقد تبع معظمُهم تقريبا فترة من الزمن الدعاةَ الخوارجَ الذين تسرَّبوا الى المغرب في الربع الأخير من القرن الاول للهجرة/الربع الاول من القرن الثامن الميلادي في الفترة التي قدم فيها الفاتحون العرب . وبتأثير رجالٍ بودنا ان نعرف المزيد عنهـم ، كصالح الذي ادَّعى النبوَّة في قبيلة برغواطة ، فان اسلامهم غير السنِّـي « تَبَرْبر » واصبح له كتاب مقدَّس بلسان البربر وكذلك صلوات يومية . والى حدٍ يتجاوز ما عليه الحال في الدين الاسلامي القويم ، فانهم كانوا يصومون ويحرِّمون تناول بعض الأطعمة ، فكانت طرقهم تختلف عما امر به النبي محمد صلىَّ الله عليه وسلَّم . كما نعلم كذلك ان شخصا من قبيلة غمارة يُدعى حاميم دعا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي لديانة متأثرة بالدين الاسلامي (53) . ويبدو من الواضح ان معتقداتٍ اخرى من هذا القبيل ، مع انها كانت قصيرة الأجل ولم تكن واسعة الانتشار ، قامتْ في المغرب . ويمكن القول انه اذا كان الاسلام ، بشكل مشوَّه نوعا ما ، قد

---

(52) حول هذا الموضوع ، انظر ما كتبه الفرد بلْ : لمحة عن الاسلام في بلاد البربر ، مجلة تاريخ الأديان ، عدد يناير ـ فبراير 1917 . وكذلك كتابه بعنوان (الديانة الاسلامية في بلاد البربر) ، الجزء الأول ، باريس 1938 .

(53) عن حم ، انظر (دائرة المعارف الاسلامية) ، الطبعة الثانية ، المجلد الثاني ، ص 134ـ 135 (الطبعة الأنجليزية)/ص 266 (الطبعة الفرنسية) .

انتشر انتشارا واسعا بين قبائل البربر ، فانه كان إسلاما سطحيًا ، وانه لم تكن معروفة لديهم سوى مبادئه العامة . ولم ينجحْ الا في حجب طقوس وعادات ومعتقدات نجهل منشأها ولا نكاد نعلم عنها شيئا لأن المؤرخين المسلمين يحُجمون عن ذكرها .

وحتى اذا أُعتبرت الصورة البربرية للاسلام غير صحيحة ، فانها مع ذلك تركتْ أثرًا عميقًا في المجتمع البربري . فقد ايقظتْ في هذا المجتمع الايمان بالله الواحد القدير ، وكذلك الرغبة في الامتثال لأوامره على خير وجه . وهذا يفسّرُ نجاح المرابطين الذين قدّموا انفُسهم بادىء الأمر كمصلحين دينيين ، وذائدين عن الاسلام الصحيح . ونطرا لقلة المعلومات المتوفرة ، فاننا لا نستطيع الجزم بان جميع البربر تمسّكوا بما أتتْ به قبائلُ صنهاجة من إصلاح ، غير اننا متأكدون من انه قبل ظهور ابن تومرت لم يَثرْ أحدٌ منهم على اسَلام المرابطين .

ان العبقرية الحقيقية لابن تومرت تكمُن في تقديمه لنفسه وبيده القرآن الكريم ، وفي التدليل ، مع ما كان قد اكتسبه من مكانة بعد اقامته الطويلة التي عكف فيها على الدراسة في المشرق ، على ان المرابطين كانوا قد أخفقوا في رسالتهم الدينية ، وأنهم قد اصبحوا مجسِّمِين ، وانهم لم يسيروا بعد حسب احكام الشريعة . وبالتدريج اتَّبعتْ قبائلُ برمتها من البربر في جبال الأطلس ابنَ تومرت ، لأنه كان قد استطاع إقناعها برسالته الدينية .

ومع ذلك ، فان العقيدة التي بشرَّ بها كانت متقشفة وصارمة . وقد سبق ان بينَّا أنه لم يتردَّدْ في إنزال العقاب الشديد بأولئك الذين لم يسلكوا سلوكا حسنا ، بل في استئصال جماعات كاملة لأنه اعتبرها جماعاتٍ اسلاميةً

فاسدة . كان ابن تومرت يعرف مواطنيه حقَّ المعرفة ، وكان يُدرك انه لا تروقهم المرونةُ الزائدة ، وانهم سيقبلون في الحال المبدأ القائل بان الجرائم ضد الدين يجب ان ينال اصحابها عقابا شديدا ، لأن معظم مواطنيه كانوا راغبين في ان يكونوا مسلمين صالحين ملتزمين . وقد عمل ابن تومرت على ان يوفِّر لهم كلَّ الوسائل الممكنة ليكونوا مسلمين صالحين مهما كانت الصعوبات القائمة ؛ وبدون الاسلام كان من المحتمل أن يبقى رئيسا قبليا صغيرا ثائرا فحسب بدون اي مستقبل . وقد اثبت وجودَه لأنه عرف كيف يُثير المثلُ الدينيةَ العظيمة التي كانت تتطلع اليها نفوسُ البربر .

كما استطاع تجاوزَ الاطار التقليدي بمحاولته خلق مجتمع جديد قائم على مبادىء تختلف عن مبادىء المجتمع البربري الموروث عن الآباء ، مقتفيا سُنةَ النبي صلىَّ الله عليه وسلَّم الذي نجح في إقامة جماعة في المدينة المنوَّرة لم تكن قائمة على روابط الدم والاحترام للعُرف بل كانت تجمع بينها روابطُ الدين واحترامُ الشريعة . وفي نهايةِ الأمر ، لم يُكتبْ النجاحُ لمحاولة ابن تومرت خلق امبراطورية متماسكة قادرة على البقاء ، ولم يكن إخفاقه ايضا واضحا ، بل اظهرت جماعة تنمل بعض الصفات الأصلية : فقد نجح المهدي في دمج جماعات قبلية مختلفة كان يمكن لولاه ان تبقى منفصلة عن بعضها البعض ، لا بل معادية لبعضها البعض . لقد تغيرَّ شيء ما في جبال البربر - فابن تومرت بلا ريب قد هزَّ البنيات القائمة .

ومع ذلك ، فان الوحدة حتى في حياة ابن تومرت لم تكنْ كاملة . فقد انضمَّت قبائل كثيرة الى حركة الموحدين عنوة ، كما تدل على ذلك رواية البيذق . ومن المحتمل انها كانت تتحيَّن حدوث انتكاس لسلطة الموحدين

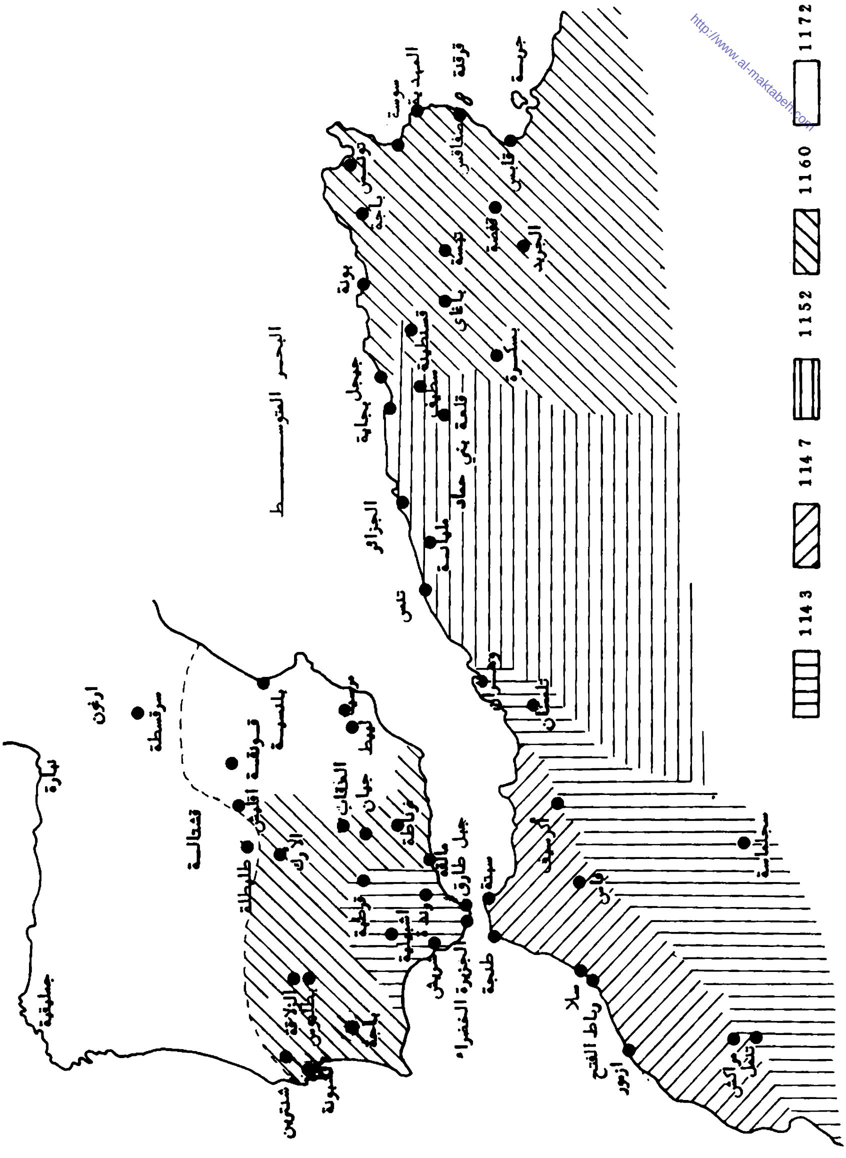
يسمح لها بالانفصال والعودة الى سيرتها الأولى . ولم تكن ثمة مساواة ، حتى بين القبائل المهيمنة ، ومن السهل ان نستنتج من نظام الطبقات الذي وصفه المؤرخون ان بعض الجماعات ، كهرغة واهل تنمل مثلاً ، كان لها التميُّز على غيرها من القبائل التي يحُتمل ان تكون قد امتعضتْ لذلك . وباختصار ، فانه عند اختفاء المهدي كانت الوحدة ما تزال غير ثابتة وغير مستقرة ، بل كانت عرضة للتفسخ اذا لم يُقيَّض لها ظهورُ مرشد قوي لتولي أمر مصير جماعة الموحدين ومستقبل الحركة .

الفصل الثاني

تشييد امبراطورية

لم يكن من السهل ، وقد توفي ابن تومرت ، ايجاد رجل يخلفه له شخصيته القوية . وقد ثبت ان القرارات بشأن من يخلفه قد اتُّخِذتْ مِن قِبَل افراد قلائل جدا وقت اعلان وفاة المهدي ، ولم تُذَعْ هذه القرارات الا بعد ان كانوا متأكدين من عدم قيام اية مصاعب . وليس من المؤكد معرفة ما اذا كان ذلك قد تمَّ بعد حدوث الوفاة ببضعة ايام ، او بضعة اشهر ، او بضع سنين .

خلف ابن تومرت احدُ طلبته الاوائل ، عبد المؤمن بن علي ، الذي كان قد لقيه في ملالة حينما كان ابن تومرت عائدا من مصر . وقد قُبل عبدُ المؤمن خلفا لابن تومرت مع انه لم يكن ينتمي الى اي من قبائل جبال الأطلس ، او ربما كان عدم الانتماء هو سبب ذلك . لا جرم ان عبد المؤمن كان من البربر ، وقد وُلد في سلسلة جبال ترارة الساحلية شمالي تلمسان ، وهي تبعد كثيرا عن تنمل ، ولم تكنْ قبيلته بالتأكيد تنتمي الى نفس العشيرة التي تنتمي اليها مصمودة . وربما كان من الاسهل لمصمودة ان تقبل غريبا زعيما جديدا لها من ان تقبل احد ابنائها الذي سيكون بالضرورة فردا من احدى جماعاتها المحلية ، ويحُتمل ان لا يحظى لذلك السبب بالقبول من جانب الجماعات الأخرى . كان عبد المؤمن من اول الطلبة وأعزِّهم ، وكان يناهز الاربعين من عمره حينما توفي المهدي . وقد دلَّل على شجاعته ونباهته في


البحر المتوسط
أرغون
سرقسطة
نبارة
قشتالة
قونقة
أقليش
طليطلة
الأرك
بلنسية
مرسية
جيان
غرناطة
المرية
مالقة
قرطبة
إشبيلية
شريش
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
بطليوس
باجة
شنترين
لشبونة
جليقية
طنجة
سبتة
فاس
سلا
رباط الفتح
أزمور
مراكش
تنمل
سجلماسة
تلمسان
وهران
تنس
مليانة
الجزائر
بجاية
جيجل
سطيف
قلعة بني حماد
قسنطينة
بونة
باغاي
بسكرة
تبسة
قفصة
الجريد
باجة
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
قرقنة
قابس
جربة
1143
1147
1152
1160
1172

مناسبات كثيرة ، اما مواهبه كقائد حربي ورئيس دولة فستتقرّر في المستقبل سوقد اعترفتْ به جماعة الموحدين خليفة في عام 524 هـ/1132 م ، او عام 526 هـ/1133 م ، او ربما حتى في عام 527هـ/1134 م (1) .

كانت بدايته متواضعة ، وبعد ان تلقّى درسا من الكارثة التي مُني بها قرب مدينة مراكش ، لم يقُمْ ثانية بمهاجمة قوات المرابطين في ارضهم قبل التأكد من قدرته على الظهور عليهم . كما يحتمل انه كان في هذا الوقت نفسه على اتصال سري بكثير من القبائل الواقعة تحت حكم المرابطين ، ينشر بينها افكار الموحدين السياسية والدينيّة . وقبل الزجّ بجنوده في ميدان القتال ، رأى ان من الأصوب التمهيدَ لذلك . ولا تتوفر لدينا ابدًا اية تفاصيل دقيقة عن العمليات العسكرية التي جرتْ ، ولا يذكرُ المؤرخون شيئا عن اعمال عبد المؤمن السياسية خلال هذه الفترة الطويلة والغامضة ، الا انها كانت من غير شك اعمالا ماهرةً وفعّالة ، اذ لم تسجل سوى مقاومة ضئيلة ضد هجوم الموحدين فوْرَ وقوعه .

وبعد عدة سنوات ـ سبع او ثماني سنوات ـ من الاستعدادات البطيئة المتئدة ، وبعد مناوشات كثيرة جرتْ معظمها في المناطق الجبلية المجاورة وفي المنطقة الجنوبية المتاخمة للصحراء (2) ، غادر عبد المؤمن تنمل في ربيع عام 535 هـ/1141 م . ولعلّه آنذاك كان يأمل ، دون ان يكون متأكدا من ذلك ، في ألاَّ يُقيم ثانيةً في تلك العاصمة الصغيرة . وبسبب ما نفتقر اليه لسوء الحظ من ادلّة كتابية ، فانه يستحيل ان نعرف بالضبط ما كان يجول في خاطر عبد المؤمن ، الا ان جميع تصرفاته تدلُّ على انه ابتداءً من هذا الوقت ـ حَسْبَ سياسة المهدي ـ أخذ في إقصاء المرابطين عن مدينة مراكش

(1) البيذق : كتاب المهدي بن تومرت ، ص 85 .

(2) المصدر نفسه ، ص 84 ـ 88 .

وعن جميع اراضيهم ، لأنه الى حدٍ كبير اعتبرهم غيرَ جديرين بزعامة جماعة اسلامية .

كما لا شك في انه اعتبر الموحدين الجماعةَ الوحيدةَ القادرةَ على ان تخلف المرابطين ، اذ انهم وحدهم ، في رأيه ، قادرون على السير بالمسلمين على الصراط المستقيم ، بعد ان ضلَّلهم المرابطون « المجسِّمون » . ولما كان هو رئيس جماعة الموحدين ، فان من الجليِّ انه اعتبر نفسه رئيسا لأمبراطورية المرابطين السابقة التي ينبغي ان تعود الى الاسلام « الصحيح » .

هل نظر عبدُ المؤمن الى ابعد من ذلك ؟ وهل حلم في غضون أيامه الأولى الغامضة بالسيطرة على كل المغرب الاسلامي ، وبأنْ يقيم أسرته على رأس امبراطورية مترامية الاطراف كهذه ؟ إن مثل هذا القول لا تسانده ايةُ ادلَّة كتابية . لذلك علينا ان نوّطن النفس على الجهل التام تقريبا بشأن دوافع عبد المؤمن ـ فهل كان انتهازيا حاذقا اغتنم كل فرصة سانحة ؟ او هل كان رجلا طموحا على علمٍ تامٍ من اول الأمر بهدفه النهائي ، رجلاً عمل باستمرار لخلق فُرص يمكن ان تؤدي به الى ذلك الهدف ؟

ولا يتسنى لنا سوى المجازفة بافتراض ، عندما نلاحظ الحماس للاصلاح الذي كان الدافعَ الاولَ لحركة الموحدين ، فقد نستخلص انه جالت على الفور فكرةٌ في ذهن عبد المؤمن لنشر عقيدة المهدي في سائر ارجاء شمال افريقيا ، وربما الأندلس كذلك . أَلَمْ يَعِبْ ابنُ تومرت ما رآه في تونس وقسنطينة وبجاية (3) ؟ أَلَمْ يكنْ من المرغوب فيه لذلك ، العمل على

---

(3) المصدر نفسه ، ص 50 ـ 52

انتصار الاصلاح الموحدي في سائر أرجاء هذه البلاد ؟ واذا تركْنا الطموح الشخصي جانبا ـ وقد لا يكون ثمة مبرر لذلك ـ فان عبد المؤمن تصوَّر نشرَ رسالة معلِّمه في سائر انحاء المغرب ، حتى حينما كان يقيم في تنمل .

وليس من المؤكد انه حلم في هذه المرحلة المبكرة بتنصيب نفسه وأسرته على رأس امبراطورية موحدية ، مع ان هذه الفكرة لا يمكن صرفُ النظر عنها كليةً .

لقد سار ببطء ومنهجية ، فتجنَّب بانتظامٍ ملاقاةَ المرابطين في ساحة القتال ، بل وطَّد سلطته في سائر انحاء سلاسل جبال المغرب الأقصى سلسلةً بعد اخرى ، مبتدئًا بالأطلس الأعلى ، ثم الأطلس الأوسط ، ثم الريف ، وأخيرا السلسلة الجبلية الواقعة جنوبي تلمسان .

وقد أكَّد كثيرٌ من الباحثين هذه « اللعبة » التي استعمل فيها خصمان اسلحةً مختلفةً تماما ، وكان كلاهما حذرا (بعد التجربة) من المخاطر التي تكتنف المغامرةَ في اراضي خصمه . وهكذا فان عبد المؤمن ، وقد كبحتْ جماحَه الذكرياتُ المُرَّةُ لوقعة البحيرة ، لم يخاطرْ بالنزول الى السهل ، بل شقَّ طريقه عبر الجبال بمهارة فائقة . ولأول وهلة ، فان هذه اساليبُ غيرُ مألوفةٍ بالمرة ، الا انها كانت تناسبُ تماما حاجاتِ الموحدين وظروفَهم العسكرية .

اما جنود المرابطين ، فانهم من جانبهم قلَّما تركوا السهلَ بل قصروا نشاطهم معظم الوقت على مطاردة الجيش الموحدي ، مع بقائهم على مقربة منه للنزال منتظرين بصبر ان يدخل عبد المؤمن متهوّرًا ميدانا مكشوفا

فيعرِّض بذلك نفسه للمهاجمة من قِبلَ فرسان المرابطين . ويبدو ان المرابطين لم يُدركوا ان الوقت لم يكنْ في صالحهم ، اذ انهم حاولوا وقفَ تقدم عبد المؤمن بطوابير ضعيفة كانت دائما تُمنى بالهزيمة . ولم تكنْ لديهم الجرأة المطلوبة لمواقعة الموحدين في معركة حاسمة ، لعلَّها كانت فرصتَهُم الوحيدةَ لسحق عدوِّهم .

وفي اثناء تجوال عبد المؤمن في الجبال ، لم يقتصرْ على الاستيلاء على الأراضي بل شرع جاهدًا في كسب الأنصار لعقيدة الموحدين ، فضلا عن تجنيد المحاربين لخدمة قضيته . ويا لهم من محاربين ! جبليُّون أشدَّاء ، أسلاف جنود القرن العشرين ، فلا يُنتظر منهم والحالةُ هذه ان يكونوا سوى محاربين من الطراز الأول . ان رواية البيذق ، الذي شارك في « حملة السنوات السبع » ، صريحةٌ حول هذه النقطة : فقلَّما لقي الموحدون مقاومةً من جانب القبائل الجبلية ، بل على العكس من ذلك ، فان معظم تلك القبائل لم تجدْ من الصعب عليها اعتناقَ قضية الموحدين (4) .

وهكذا ، فان عبد المؤمن لم ينجحْ عمليا في شطر اراضي المرابطين الى شطريْن في ناحية تازَة ، وفي ان يقيم حول ناحية مراكش المرابطية شبهَ حركة كماَّشة في سلسلتيْ الريف والأطلس فحسب ، بل إنه عزَّز جنوده ايضا تعزيزا كبيرا . وأنشأ تدريجيا قوةً فعالةً اصبحت اكثر فاكثر تضاهي قوةَ خصومه . وفي عام 539 هـ / 1145 م ، وفي المنطقة القريبة من تلمسان ، قرر عبد المؤمن اخيرا انه بلغ من القوة درجةً تمكِّنه من الشروع في حملة

(4) المصدر نفسه ، ص 89 ـ 96 .

حاسمة في البسائط الواقعة بين تلمسان ووهران ، وقد كُتبَ له الظفرُ فيها . ثم تحوَّل الى بسائط المغرب الأقصى ، ومضى يُخضع فاس اولا ، ثم مدينة مراكش ـ بعد محاصرات طويلة ومضنية ـ فتمَّ له الاستيلاءُ عليها في ربيع عام 541 هـ/1147 م (5) .

كانت مدينة مراكش قد أسَّسَها المرابطون ، وكانت مقرَّ سلطانهم ، ولذا فليس من الغريب ان تبدي صمودا قويا ضد الموحدين . كما ان فاس أبدتْ مقاومةً للفتح الموحدي لا تقل عن مقاومة مدينة مراكش ، مما يبينً أنَّ مُدُنًا كثيرة في الامبراطورية ـ إن لم تكنْ كلُّها ـ قد استفادتْ من الرخاء المرابطي ونعمتْ به ، وكانت لذلك متعلقة بقضية المرابطين تعلقًا قويا . وقد خشيتْ هذه المدنُ غلبة البربر من اهل الجبال الذين عرفُوا بالبساطة والتقشف ، ومن ثم فانها لم تتوقَّعْ ان يؤسس هؤلاء القوم امبراطورية اكثر اتساعا وحضارة ورخاء مما كان المرابطون قد نجحوا يوما في تاسيسه .

وحتى بعد ان تمَّ للموحدين الاستيلاءُ على فاس ومراكش وهزيمة المرابطين ، لم يصبحُوا سادةَ المغرب الأقصى ، اذ كان عليهم مواجهة ثورات رهيبة هدَّدتْ سلطانهم (6) . وقد وقعت حركاتُ الثائرين في جنوب المغرب الأقصى (اقليم السوس) وعلى ساحل المحيط الأطلسي من سبتة الى أجادير ، وقام بها على الأقل زعيمان يبدو انهما لم يوحِّدا خطتيهما، ولم يكونا

(5) حول جصار فاس ، انظر البيذق ص 99 ـ 102 ، وحول حصار مدينة مراكش ، انظر المصدر نفسه ، ص 102 ـ 104 .

(6) أعدَّ دراسةً جيدة جدا عن هذه الحركات علي مراد في مقالٍ بعنوان (عبد المؤمن وفتح شمال افريقيا) نُشرَ في (حوليات معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بالجزائر) ، العدد 15 (1957) ، ص 122 ـ 131 . والجزء الاساسي من أدلّته مصدره « مذكّرات » البيذق .

على اتصال فيما بينهما . وبالرغم من قلة الإعداد لثورتيهما، فان القبائل ساندتْهما ، بحماس ، واستطاعا ان يجهّزا جيوشا حقيقية من مئات الألوف من الرجال تمكّنتْ في مناسبات كثيرة من إيقاع هزائم منكرة بجنود الموحّدين .

ان الثائرين المعادين للسلطة الجديدة كانت تحدوهم مشاعرُ دينية . وقد ثاروا على تصلب رأى الموحدين ، لأن هؤلاء ندّدوا بالتأكيد بالمذهب المالكي الذي كان يناصره المرابطون . كما أُشير (7) الى ان القبائل الثائرة كانت كلُّها تقريبا قبائلَ من اهل السهول ، ولذلك فانها وقفتْ بحزمٍ ضد السلطة التي استحوذ عليها اهلُ الجبال مؤخرا . ولا يُستبعد انه في حالات كثيرة لعبتْ الخصوماتُ القائمةُ بين النمطينْ الغريبينْ والمتضاربينْ للحياة القبلية على الأقل دوْرا في مقاومتها ، فضلا عن الخلافات الدينية . وباختصار ، فان المرء يستطيع ان يقول ان قبائل السهول قاومتْ سيطرةَ الموحدين مقاومةً شديدة ، في حين ان قبائل الجبال رضختْ لهم بسرعة .

وقد واجه عبد المؤمن الثورة بنشاطه المعهود ونجح في اخمادها . الا انه رأى ان النصر العسكري لم يكنْ كافيا ، وانتهز فرصة وقوع حادث (8) (لا يصفه المؤرخون بوضوح) للشروع في حملة تطهير واسعة النطاق بين القبائل التي كانت قد ثارت لتوِّها ، وحتى بين بعض قبائل الموحدين ذاتها . واذا كان لنا ان نصدِّق البيذق ، فان هذه العملية المسماة اعترافا (اي الاعتراف بسلطة الموحدين) ادّتْ الى وفاة 32780 شخصا . وهكذا فان

---

(7) المصدر نفسه .

(8) البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 109 ـ 112 .

عبد المؤمن اضطر الى اتخاذ اشد التدابير حزما لترسيخ حركته في المغرب الاقصى ، وقد قام بذلك بقسوة لا هوادة فيها .

وفي الوقت نفسه تقريبا ، اضطر عبد المؤمن ايضا الى التدخل في الاندلس حيث اتاح ضعف سلطة المرابطين للنصارى الإسبان فرصة للفتح . غير ان الموحدين واجهوا مقاومة عنيفة من جانب اهل الاندلس ، ويعود ذلك ـ الى حد كبير ـ إلى عدم رضا الاندلسيين عن البربر ، اذ كان الاندلسيون لا يزالون يذكرون مطالب رؤساء البربر وجنودهم في فترة الفوضى في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وهي الفترة التي ادَّتْ الى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة . ثم استقر المرابطون عام 479 هـ / 1086 م في الأندلس كسادة ، وعاملوا البلاد كبلاد مفتوحة ، مما جعل نفور الاندلسيين من البربر يزداد كثيرا في ذلك الوقت (9) ، ولذلك تصلَّبوا في مقاومة الموحدين ـ مع ان هؤلاء جاءوا انتصارا للدين الاسلامي ـ لكونهم بربرا ، ولان صرامة عقيدتهم لم تكن تتفق إطلاقا مع الحرية الفكرية والاخلاقية التي اعتادها مسلمو شبه الجزيرة .

لذلك فان عبد المؤمن اضطر الى الاكتفاء باحتلال غرب الأندلس اذ ان ولايتيْ غرناطة وبلنسية لم تعترفا بسلطته . وهنا يمكن القول انه ، باستثناء شرق الأندلس ، نجح عبد المؤمن في وضع امبراطورية المرابطين بأسرها تحت حكم الموحدين قبل حلول عام 545 هـ / 1152 م .

بَيْدَ انه لم يكتفِ بذلك : ففي عام 547 هـ / 1154 م جهَّز حملةً ضد

---

(9) [ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة ، ص 9 ، 16 ، 28 ـ المعرَّب]

مملكة بني حماد في بجاية وأخضعها دون ان يلقى مقاومةً تُذكر . وكانت هذه المملكةُ قد ضعفتْ كثيرا بعد نزول قبائل البدو العربية في السهول العالية في منطقة قسنطينة ، وعاشت حياة اقتصادية متواضعة في عاصمتها بجاية وما حولها . واذا كان الموحدون قد لاقَوْا مهمةً سهلةً بهذا الخصوص ، فانهم واجهوا صعوباتٍ جمة في إخضاعِ هذه القبائل العربية .

ويذكر البيذق أن الموحدين ، هم الذين بدأوا القتال ضد العرب (10) ، وليس ذلك بالأمر الغريب . فان الموحدين ، وقد استَوْلَوْا على بجاية ، اعتبروا انفسهم ورثةً لممتلكات الحكام السابقين ، اي لولاية قسنطينة بكاملها . وحينما تحوَّلوا ضد ناحية سطيف ، فانهم في الواقع كانوا يعتقدون انهم متوجهون الى اراضيهم .

ويبدو ان سقوط بجاية لم يَلْقَ ايَّ رد فعل من جانب العرب ، سوى انهم لم يَرَوْا ما يبرر خضوعهم لحكم الموحدين ، إذ لم يسبق لهم ان خضعوا لبني حماد . وحينما استولى الموحدون على قلعة بني حماد . أقام العرب ائتلافا أوقع الهزيمةَ بالموحدين ، والسبب في ذلك ، اذا جاز لنا ان نصدِّق قوْلَ البيذق (11) ، هو قيام نزاع بين اثنينْ من رؤساء الموحدين عُهِدَ اليهما بقتال

---

(10) البيذق : كتاب اخبار المهدي بن تومرت ، ص 114 . يذكر البيذق انه بعد ان ميَّز الخليفة الموحدين « خرج يصلاسن بن المعز وعبد الله بن وانودين صهر امير المؤمنين للعرب » . ولما كان لا يَتوفر لدينا دليل بان العرب كانوا سابقا قد هاجموا الموحدين ، فاننا نميل الى الاعتقاد بان المبادرة بالقتال جاءت من جانب عبد المؤمن .

11) المصدر نفسه ، وكذلك هـ.ر. ادريس : افريقية تحت حكم بني زيري ، باريس ، 1962 ، الجزء الاول ، ص 365 ـ 374 .

العرب . ولثلاثة ايام أبدى العرب مقاومةً عنيفةً للجيش الموحدي بكامله ، وهو الجيش الذي كان قد شَنَّ هجوما ضدهم في سهل سطيف (12) .

ثم بعد ذلك بسنوات ، استجاب عبد المؤمن لاستغاثة مسلمي افريقية ، الذين ناشدوه تدخل الموحدين ، بعد ان رأوا النورمان من صقلية يحتلُّون بعض موانيهم ويمتد نفوذهم الى سائر انحاء البلاد . وقد اعدَّ عبدُ المؤمن حملته بعناية بالغة ، واصطحب معه جيشا لجِبًا . وفي البداية ، استولى على مدينة تونس حيث قضى على أُسرة بني خراسان التي كانت تحكمها منذ اكثر من قرن من الزمن . ثم بدأ في حصار المهدية ، معقل النصارى الرئيسي ، واستولى عليها في محرَّم 555 هـ / يناير 1160 م (13) . وتم بذلك إبعادُ النورمان عن افريقية ، ومنذ ذلك التاريخ ملَك عبد المؤمن افريقية وطرابلس الغرب ايضا .

وهكذا فانه لأول مرة في تاريخ شمال افريقيا ، فيما نعلم ، توحَّدتْ تلك البلادُ على يد البربر . ولا جدال في ان صفاتِ عبد المؤمن الشخصية كانت عاملا رئيسيا في هذا الانجاز ؛ فقد كان قائدا حربيا جيدا ، كما كان رئيسًا سياسيا جيدا ، ولذلك استطاع ان يقود الموحدين الى نصرٍ لم يسبقْ له مثيل . ومن ثم فهو على حقٍّ حينما كان يقدِّم نفسه دائما كالوارث الأمين للمهدي ، فما أنجزه عبدُ المؤمن ما كان ليتحقَّقَ لولا الحماسُ الذي بثَّه ابن تومرت في نفوس المصامدة ، ولولا النظام الذي استطاع ان يفرضه على القبائل .

---

(12) ابن خلدون : كتاب العبر ، 491/6 .

(13) المصدر نفسه ، 494/6 . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، 64/9 .

بيد ان عبد المؤمن كان اقلَّ وفاءً بكثير لتعاليم المهدي مما كان يظَـنُ . فصحيح انه كان ورعا شديد الورع ، وشديدَ الالتزام بالسنن الدينية التي استنَّها المهدي ، الا انه صحيح كذلك ، انه لم يتوفر له البيان نفسه ولا قوة الاقناع نفسها ولا الايمان الديني العميق نفسه ـ على ما يحتمل ـ ولا المعرفة التي توفرت لمعلِّمه . وقد وصلتْنا بعضُ النصوص التي كتبها حول أمور دينية ، فكلها يبعثُ على الملل لأنها لا تشتمل على شيء ذاتي ولا على ما يشبه الايمان المتألق لابن تومرت . ومن الناحية الدينية ، يبدو انه لم يحتفظْ الا بصرامة عقيدة ابن تومرت وورعه . فحينما استولى على افريقة ـ على حد قول مؤرخٍ مشرقي (14) ـ عرض الاسلامَ على من بها من اليهـود والنصارى ، فمن أسلم سلم ، ومن امتنع قُتِلَ . وتدل جميع البيِّنات المتوفرة على ان الشعائر الدينية والمواعظَ كانت مرعيَّةً في بلاط عبد المؤمن . ولا يستطيع المرء ان يدعي انه اهمل في العقيدة والسنن الدينية التي اقامها ابنُ تومرت : فلم تكنْ امبراطوريةُ الموحدين تحت حكمه أقلَّ ورعـا من الجماعة الصغيرة في تنمل في عهد المهدي ، الا ان ذلك الورع كان اكثر آلية واصطباغا بالصبغة « الرسمية » مما كان عليه سابقا . لقد كان رئيسا حربيا عظيما ، وإداريا جيدا ، ورجلا حكيما ونشيطا ، ومسلما مخلصا ، الا ان صدره لم يكن يـجيش بالحمية المتقدة والمتالقة التي توفرت لابن تومرت ، كما كان رجلا مجردا عن المؤهلات الدينية الحقيقية . وهذه الكلمات القليلة تصور الصّفات الأساسية لعبد المؤمن .

(14) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، انظر في موضعه ، 64/9 .

وثمة شيء آخر يؤخذ على عبد المؤمن . فمع انه مؤسس امبراطورية الموحدين ، كان ايضا اول من عمل على تفسخها . وبالطبع فانه لم يسْعَ للشروع في تقويض ما كان يبنيه ، كما لا شك في ان ما اتخذه من اجراءات انما كان عن اقتناع منه بانه سيعزِّز قوة الموحدين ، الا انه في الواقع ضرب ضربتين لم تصحً بسببهما امبراطورية الموحدين أبدا . وقد سُدِّدَتْ هاتان الضربتان في آن واحد تقريبا وقت ان كان عبد المؤمن في اوج سلطانه .

اما الضربة الأولى فهي ادخال بعض القبائل البدوية العربية الى المغرب الأقصى . وحتى ذلك التاريخ ، لم يكن العرب قد تجاوزوا في تقدمهم وسط الجزائر في منطقة بو سعادة ، ويحتمل ان يكون قد تم ايقافهم على يد امبراطورية المرابطين . فلما اتمَّ عبد المؤمن هزيمة هذه القبائل واخضاعها فكر في استخدامها في الجهاد ضد النصارى في الأندلس ، فتحادث معهم محاولا إقناعهم بان يجلبوا بعض قبائلهم الى المغرب الأقصى لكي يتِمَّ إعدادُها للجهاد في الأندلس ، وهذا هو السبب الذي يُذكر دائما لتبرير هذا القرار .

وربما كان ثمة سبب آخر له ، فبعد حملة عام 547 هـ / 52 ـ 1153 م ضد مملكة بني حماد ، نشأتْ ازمة خطيرة في الدوائر الحاكمة للموحدين : ذلك ان اثنينْ من اخوة المهدي اللذيْن ظلاّ على قيد الحياة بعد وفاته بدر عنهما عداء سافر نسبيا تجاه عبد المؤمن ، وانحاز اليهما آخرون . ولعل ذلك اشعر الخليفة بان حاجته الى جنود صاعقةٍ للذوْد عنه وقت الضرورة لا تقل عن حاجته الى محاربين للجهاد . ان هذا التقدير كان سليما من وجهة نظر قصيرة المدى ، كما سنرى بعد قليل ، لكنه من وجهة النظر البعيدة كان بمنزلة الكارثة على امبراطورية الموحدين وأسرتها الحاكمة . فحالما تتهاوى

سلطة الخليفة تكون هذه القبائل العربية التي استقرَّتْ في قلب الامبراطورية في مركزٍ يمكّنها من التدخل في سياسة الدولة العامة . ولما لم تكنْ لهذه القبائل افكار او تقاليد سياسية ، فانها تقدّم مساعدتها لأعلى مساوم ، وبذا تصبح عاملاً من عوامل الفوضى وعدم الاستقرار .

وبعد ذلك ببعض الوقت ، في ربيع عام 549 هـ / 1155 م ناشد عدة زعماء عرب عبدَ المؤمن ان يسمّي أحدَ ابنائه وليا للعهد . أما ما اذا كان هذا الطلب قد جاء بمبادرةٍ من هؤلاء الزعماء أم انهم حمِلُوا على التقدم به ، فذلك موضعُ نظر . ويبدو ان الخليفة رفض الطلب في باديء الأمر ، ولكنه قبله آخرا ولم يكنْ ذلك فيما يبدو عن غير رضى منه . وعدئذ ثار أخوا المهدي علَنًا ، وحاولا الاستيلاء على السلطة في مدينة مراكش ، الا انهما أخفقا ، وتمَّ اعدامُهما . وبعد هذه الحادثة ، طلب العرب ثانيةً من عبد المؤمن ان يعينَ ابناءه ولاةً على الولايات الرئيسية . وللمرة الثانية تظاهر عبد المؤمن بالدهشة ورفض الطلب ، ثم لم يلبثْ ان بدّل رأيه مرة اخرى . وهكذا فقد حدث اسوأ ما يمكن حدوثه : إذ لم تعُدْ الامبراطورية منذ ذلك الوقت قائمة بثبات على حركة الموحدين ، بل تحوَّلتْ الى امبراطورية وراثية لمصلحة أسرة الخليفة (15) . ولعلَّ عبد المؤمن ، دون ان يدرك ذلك إدراكا جليا ، قد صادر بعمله هذا الامبراطورية نيابةً عن عقبِه . وبالطبع ، فانه وخلفاء ه ظلوا يُكرمون زعماء الموحدين ويتظاهرون بانهم يُولونهم دوْرا كبيرا . اما في الواقع فان هؤلاء الزعماء اصبحوا تدريجيًا اشبه بموظفين إضافيين يلقَوْن بالغ

(15) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث ، انظر مقالة روجر لي تورنو بعنوان : (حركة الموحدين وأسرة عبد المؤمن - ثورة شقيقي ابن تومرت من عام 1153 الى عام 1156 في (MELANGES D'HISTOIRE ET D'ARCHEOLOGIE DE L'OCCIDENT MUSULMAN) ج 2: ص 111 - 116 .
انظر كذلك علي مراد : عبد المؤمن وفتح افريقيا الشمالية ، انظر في موضعه ، ص 136 - 152 .

الحفاوة والتكريم . ونتيجةً لهذا التغيير العميق ، فان التنافس المثمر بين القبائل من ناحية والحماس الديني من ناحية أخرى (وهو الحماس الذي أثاره المهدي) ،سرُعان ما اصبحا كليلينْ واختفيا كليَّةً . وفي الوقت ذاته ، فان النزعة الاقليمية لدى البربر قد دبَّتْ فيها الحياة ، هذا اذا افترضْنا انها كانت نائمة حقيقةً . ولا شك ان ذلك التطور احتاج الى بعض الوقت ، الا أنه لم يلبثْ ان اصبح جليا تماما .

وهكذا فحينما توفي عبد المؤمن في عام 558 هـ / 1163 م ، كانت الامبراطورية التي تركها خليفة المهدي اقوى ظاهريا منها في حقيقة الأمر ، الا انها خلَّفتْ انطباعا جيدا . ولم تتمَّ دائما المحافظةُ على النظام دونما صعوبة : ففي كثير من المناطق ، استدعى الأمرُ استخدامَ القوة ، الا ان ذلك لم يكنْ بالأمر المستغرب اذ ان شعوب المغرب لم تكنْ قد اكتسبتْ بعدُ عادة العيش معا ، وفي الأندلس ، فان الجزء الخاضع لحكم المسلمين لم يخضع بكامله لحكم الموحدين ؛ لأن حركة معادية للبربر قد بدأتْ في شرق الأندلس في نواحي بلنسية ولقُنتْ ومُرسية ، وكان عبد المؤمن يجهّز حملة لمناهضة الحركة حينما حضرتْه الوفاة (16) . ومع ذلك ، فان سلطة الخليفة كانت اقوى واكثر انتشارا من سلطة اي سلطان سبقه من البربر .

وكانت تلك السلطةُ تساندها إدارة كفأة ـ كما تبيِّن المعلوماتُ المتوفرة ـ دلَّلتْ بجلاء على مقدرة عبد المؤمن الادارية . وفي الواقع ، فانه ما ان فرغ من الاستيلاء على كل بلاد المغرب ، حتى أمر بأجراء مَسْحٍ عامٍ لجميع

(16) حول تطور الأحداث في الأندلس ، انظر هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لامبراطورية الموحدين ، انظر في موضعه ، الجزء الأول ، ص 196 ـ 207 .

الأراضي ، ففرز المناطق القابلة للفلاحة عن الغابات والأراضي القاحلة ، لكي تتسنَّى جبايةُ الضرائب على أساس سليم . ولسوء الحظ فانه لا تتوفر لدينا سوى بضعة سطور كتبها مؤرخٌ متأخر عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عن هذا التنظيم الخاص بالخراج ، وهي لا تزوِّدنا بأية تفاصيل تمكِّننا من الحكم بدقة على مواهب عبد المؤمن ومعاونيه ورجال إدارته (17) ، الا انها على اية حال ذاتُ اهمية ، وتدل على أن للخليفة بعض الافكار الادارية العمليّة التي لاءمت امبراطوريته كل الملاءمة . ومن المؤكد كذلك ان الوضع المالي الموحدي كان لأمد طويل جيدا ، ومكَّن الموحدين إجمالا من تلبية احتياجات الامبراطورية بصورة مناسبة . كما ان عبد المؤمن احتفظ بالنظُم التي اقامها ابن تومرت حتى ولو عكستْ من وجهة نظرٍ عامة روح المهدي ، بل ان الخليفة ادخل تحسيناتٍ على بعض تلك النظم كما فعل بالنسبة لطبقة الحفَّاظ التي يزوِّدنا عنها مؤرّخٌ مجهولُ الاسم عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بالمعلومات التالية :

« وربّى الحفَّاظَ بحفظ كتاب الموطا ، وهو كتاب أعزما يُطلب ، وغير ذلك

---

(17) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص 129 : « وفي هذه السنة (555 هـ/1160 م) امر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقية والمغرب . وكسرَ منها من بلاد افريقية من برقة الى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا . فاسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات ، وما بقي قسَّط عليه الخراج . وألزم كل قبيلة قسطَها من الزروع والوَرِق . فهو أولُ من أحدث ذلك بالمغرب » .

من تواليف المهدي (18) . وكان يُدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر ، فيجتمع الحفّاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف ،كأنهم ابناء ليلةء من المصامدة وغيرهم . قصد بهم سرعة الحفظ والتـربية على ما يريده . فيأخذهم يوما بتعلم الركوب ، ويوما بالرمي بالقوس ، ويومـا بالعـوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع (700 ياردة) ، ويوما يأخذهم بان يـجدِّفوا على قوارب وزواريق صنعها لهم في تلك البحيرة . فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب . وكانـت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده ، وخيلُهم وعُدَدهُم كذلك . ولما كمل له هذا المراد فيهم عزل بهم أشياخَ المصامدة عن ولاية الأعمال والرياسة وقال : العلماء أوْلى منكم ، فسلِّموا لهم . وأبقاهم معهم في المشورة » (19) .

ان هذا النظام الذي يصفه المؤرخ يُعرف بالفرنسية الحديثة باسم مدرسة الأُطُرْ (انظر أسفله) . ولقد اهتمَّ عبد المؤمن بتدريب إداريين من طراز جديد لامبراطوريته المترامية الأطراف يـجمعون بين العلوم الدينية ومختلف التدريبات الرياضية .

وثمة اخيرا نقطة واحدة نجد انفسنا عندها في مركز جيد لتقدير قيمة عبد المؤمن : فقد كان مولعا بتشييد المباني الجديدة . ففي مدينة مراكش ، شيَّد قصرًا لم يبق منه الآن لسوء الحظ ايُّ اثر ، كما بنى حصن الربـاط على

(18) يخلط المؤلف بين كتاب (الموطا) للامام مالك بن أنس ، صاحب المذهب المالكي ، وبين الكتاب الوحيد المعروف لابن تومرت . [يذكر ابن صاحب الصلاة (موطأ المهدي) ، انظر ص 299 من (تاريخ المن بالامامة) ، السفر الثاني ، بيروت 1964 والحاشية رقم 1 في الصفحة نفسها للمحقق عبد الهادي التازي ـ المعرّب]

(19) الحلل الموشية ، ص 125 .

(ECOLE DES CADRES)

صخرة تتحكم في مصب وادي بو رقراق ـ وقد رُمِّم هذا الحصن في مناسبات كثيرة ، ولم يحتفظ بمظهره الأولي (20) . وامر ببناء المساجد في تازة (21) وفي تنمل (22) وفي مدينة مراكش حيث جامع الكتبية الشهير ببرجه العالي الأحمر اللون الحسن الزخرفة (23) . وكما فعل المرابطون من قبل ، استعان عبد المؤمن بالفنيين الأندلسيين ، الا انه حباهم روحا جديدة : فقد أحلَّ محل الزخرف الساحر لفترة المرابطين ـ ولو انه زخرف يفيض حيوية ـ فنًّا بسيطا ومتقشفا ، انتهى الى تميُّزه بالروعة . ولعل مسجدَ تنمل في واد جبلي ضيِّق أعظمُ انموذج لفن المعمار الموحدي . ولم تَبْقَ من هذا المسجد سوى أطلاله ، الا انها مهمة ، وقد تَّمتْ المحافظةُ عليها وأعيد ترميمُ المسجد بشكل يمكِّننا من تقدير روعة مظهره قبل ان يعفي عليه الزمن . وعند مشاهدة تلك الآثار ، يستطيع المرء ان يقول ان عبد المؤمن لم يكن مؤسسا لإمبراطورية عسكرية وسياسية عظيمة ورئيسا لادارة لم يسبقْ ان قام مثلُها قطُّ في شمال افريقيا فحسب ، بل كان ايضا مُبدعًا او موحيًا لطراز معماري يُعتبر اكثرَ الطرُزِ في شمال افريقيا أصالةً ووقْعًا في النفس .

لم يكُنْ عبدُ المؤمن من عُشَّاق التفاصيل الصغيرة ، ولم يكُنْ بالرجل العاطفي كما يتبينُ من هذه الحكاية التي يرويها المؤرخ عبد الواحد

---

(20) جاك كاييه : مدينة الرباط حتى بداية الحماية الفرنسية ، باريس ، 1949 ، الجزء الاول ، ص 83 وما بعدها .

(21) هنري تراس : الجامع الكبير في تازة ، باريس ، 1943 .

(22) هنري باسيه وهنري تراس : رباطات ومعاقل الموحدين ، انظر في موضعه ، ص 1 ـ 83 . كذلك هنري تراس : الفن الاندلسي المغربي من نشاته الى القرن الثالث عشر ، باريس ، 1932 ، ص 284 وما بعدها .

(23) باسيه وتراس : رباطات ومعاقل الموحدين ، انظر في موضعه ، ص 84 ـ 273 .

المراكشي (24) عن الوزير ابي جعفر قال : « دخلتُ على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعتْ ثهاره ، وتفتَّحتْ ازهارُه .... وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان ، فسلَّمتُ وجلستُ ، وجعلتُ انظر يمنة وشأمة ، متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لي : يا ابا جعفر ، اراك كثير النظر الى هذا البستان ! قلتُ : يُطيل اللهُ بقاء امير المؤمنين ، والله ان هذا لمنظر حسن ! فقال : يا ابا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ ... فلما كان بعد يومين او ثلاثة ، امر بعرض العسكر ... وجعلت العسكرُ تمر عليه قبيلةً بعد قبيلة ، وكتيبةً إثْر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها احسنُ منها جودةَ سلاحٍ ، وفراهةَ خيلٍ ، وظهورَ قوة . فلما رأى ذلك ، التفتَ إليَّ وقال : يا ابا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك » .

واذا كان عبد المؤمن قد حُرم من ذوْقٍ مُرهف ، فانه كان لديه على الأقل شعور بالعظمة ، ويمكن اعتباره من بين اكثر مؤسسي الحضارة الأسلامية موهبة .

الا ان عيوبًا خطيرة كانت تكمن خلف هذا المظهر الخارجي الرائع ـ ففي اثناء اقامة سلطته ، كان عبد المؤمن قد حوَّل حركة الموحدين تحويلا عميقا ؛ فانه لم يتخلَّ عن المبادىء الأصلية للحركة لمنفعة أسرته فحسب ـ وكانت تلك خطوة تناقض تناقضا تاما تقليد الموحدين ـ بل إنه ايضا لم يعُدْ عمليا يعتمد على المصامدة (25) .

---

(24) المراكشي : المعجب ، ص 201 ـ 202

(25) حول هذه النقطة ، انظر الملاحظات الممتازة التي أبداها علي مراد في مقاله بعنوان (عبد المؤمن وفتح شمال افريقيا) في (حوليات معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بالجزائر) العدد 15 (1957) انظر في موضعه ، ص 153 ـ 160 .

ومن السهل ان يصدِّق المرء بان بعض المصامدة الذين ادركوا الوضع حق الادراك ، حاولوا اغتياله في عام 555 هـ / 1160 م حينما كان في طريق عودته الى مدينة مراكش بعد الاستيلاء على المهدية (26) ، ولم يُنقذه من الموت سوى تضحية احد اصحابه الذي علم بالمؤامرة وأعلم الخليفةَ وتوسَّل اليه ان يبيت مكانه في خبائه ، عارضًا بذلك أنْ يضحي بحياته . ويذكر صاحب (روض القرطاس) الذي يروي هذه الحادثة بوضوح ، ان المؤامرة دبَّرها بعضُ الموحدين الذين ملُّوا من الحروب المتواصلة التي زجَّهم الخليفةُ فيها .

وبالتأكيد فان ثمة ما يبرر شعورَنا بان هذا لم يكُنْ السببَ الوحيدَ لمحاولة الاغتيال . وفي الواقع ، فانه منذ الحملة ضد مملكة بني حماد ، كان عبد المؤمن قد انتهج باستمرار سياسةَ الحلم تجاه العرب ، وحاول ان يجعلهم أكثر ارتباطًا بشخصه . وكان من الواضح انه باستثناء بعض الأفراد كأبي حفص عمر إنْتي ، لم يعُدْ عبدُ المؤمن في هذا الوقت ينظر الى اصحابه الاوائل كسندٍ رئيسي له .

وبعد محاولة الاغتيال ببعض الوقت ، اتصل عبد المؤمن سرًّا برؤساء قبيلته كُومية ، وطلب إليهم إرسالَ محاربين لضمان سلامته ، لأنه ـ حسب رواية صاحب (روض القرطاس) ـ غريب في وسط قبائل مصمودة ،

---

(26) المراكشي : المُعجِب ، انظر في موضعه ، ص 233 . ابن ابي زرع : روض القرطاس ، انظر في موضعه ، ص 130 . ورواية المراكشي ليستْ واضحة لأنه يخلط بين هذه المحاولة لاغتيال عبد المؤمن وبين ثورة شقيقيْ المهدي . ويبدو ان رواية (روض القرطاس) هي الرواية الأصحّ

وليس له أسرة يمكنه الاعتمادُ عليها ، او قبيلةٌ يمكنه الثقة بها او الركونُ اليها (27) . وقد دُهش الموحدون لوصول تعزيزات كبيرة كهذه (28) ، وتساءلوا بعضَ الوقت عما اذا كان رجال كومية قد جاؤوا بوصفهم أصدقاء ام اعداء . وقد رحَّب الخليفةُ بهم أحسن ترحيب ، وجعلهم في الصنف الثاني من طبقات الموحدين ، بعد اهل تينمل مباشرة ، وهو قرار أحفظَ بالتأكيد معظمَ الموحدين ، ذلك لأن رجال كومية ، بوصفهم ينتمون الى مجموعة مختلفة من البربر ، كانوا يُعتبرون أغرابا .

ويبدو لذلك ان نية عبد المؤمن كانت واضحة ، اذْ لما ادرك ان الموحدين يبتعدون عنه تدريجيا ، لأنه كان قد استولى على زمام السلطة لأسرته ، فانه اعتمد على العرب وعلى قبيلة كومية ، وهما جماعتان غريبتان لم تكونا قد شاركتا في الاستيلاء على المغرب . وبعمله هذا عزَّز شعورَ الموحدين بان امبراطوريته لم تعُدْ امبراطوريتَهم ، وهذا بدوْره اعطى حكمه كيانا هشًّا يختلف تماما عن الكيان السابق .

ان الإمبراطورية التي تكوَّنتْ بهذا الشكل عاشتْ نحو خمسين عاما : توفي عبد المؤمن في عام 558 هـ / 1163 م ، وظهرت البوادر الأولى للضعف الخطير في دولة الموحدين إثْرَ الهزيمة المنكرة التي مُني بها الموحدون عام 609 هـ / 1212 م في وقعة العِقاب (انظر أسفله) في الأندلس على يد ائتلاف نصراني بزعامة القشتاليين .

وفي الفترة ما بين عام 558 هـ / 1163 م وعام 609 هـ / 1212 م

---

(27) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، انظر في موضعه ، ص 131

(28) من المحتمل ان عدد 40.000 الذي يذكره المؤرخ عدد مُبالَغٌ فيه

(LAS NAVAS DE TOLOSA)

تعاقبَ على الحكم ثلاثةُ خلفاء هم : ابو يعقوب يوسف الذي حكم من عام 558 الى عام 580 هـ / 1163 ـ 1184 م ، وابو يوسف يعقوب المنصور الذي حكم من عام 580 الى عام 595 هـ / 1184 ـ 1199 م ، ومحمد الناصر الذي حكم من عام 595 الى عام 610 هـ / 1199 ـ 1213 م .

ان أمر مَنْ يخلف عبدَ المؤمن كان يمثّل محّكًا مهما بالنسبة للأسرة الحاكمة الجديدة . فهل يكافح أشياخُ الموحدين لاحياء المظاهر الأساسية لحركة الموحدين في صورتها البسيطة الأولى ، او هل يلتزمون برغبة عبد المؤمن في ان يعطي أسرتَه سلطةً مطلقةً بين الموحدين ؟ اما المؤرخون فيذكرون ان الأشياخ لم يتدخلوا في أمر الوارثة بتاتًا . ولما كان هؤلاء الأشياخ أثرياء جدا ، فانهم كانوا واثقين من ان الخليفة الجديد سوف يحترم امتيازاتهم ، ولذلك فانهم ، بما فيهم أبو حفص عمر إنْتي ، تركوا ابناءَ عبد المؤمن وشأنهم يفعلون ما يشاؤون . ومكانة ابي حفص كان من الممكن ان تغيرٍّ مجرى الأمور : فقد كان كبيرَ السن ويحظى باحترام كبير ، كما أن أبنلءه كانوا قد تولَّوْا مناصب مرموقة . وبالتالي ، وبعد شيء من التردد ، اثبت ابو حفص أنه وفيٌّ لأسرة عبد المؤمن ، كما كان وفيًّا من قبل للمهدي . ومع ذلك ، فانه يمكن القول بانه ـ دون وعيٍ منه ـ كان اقلَّ وفاءً لروح حركة الموحدين .

بيْدَ ان نوايا عبد المؤمن لم تُنَفَّذْ بكاملها . فكان باديء الأمر قد سمَّى ابنه الاكبر محمدا خَلَفًا له ، ومع ان رواياتِ المؤرخين تتباين كثيرا حول هذه النقطة ، فان الأمير محمد احتفظ بالسلطة أياما او لعله احتفظ بها لعدة اسابيع . الا انه أُرغم على التنازل عن منصبه لأن اثنينْ من اشقّائه أقاما ائتلافا ضده : وهما ابو يعقوب يوسف الذي نودي به خليفة ، وابو حفص

عمر الذي كان وزيرا في عهد عبد المؤمن ، ولذلك فانه كان يَحْظى بسلطات واسعة (29) . ويذكر مؤرخو فترة الموحدين اسبابا وجيهة لهذا التبديل ، ولعلَّ تنازل الأمير محمد بمثل هذه السهولة دليلٌ على انه لم يتوفَّرْ فيه النشاطُ او الشخصية ليصبح رئيسا لإمبراطورية مترامية الأطراف من هذا القبيل . ومع ذلك ، فان التبديل كانِ قبل كل شيء نتيجةً لدسائسَ عائلية ، من المحتمل ان تكون نساءُ الأسرة قد شاركْن فيها . ومن الواضح ان الأسرة الحاكمة كانت تتراجع تدريجيا عن الحياة المُثلى للجماعة التي كان ابن تومرت قد حاول إقامتَها في تنمل .

وفضلا عن ذلك ، فان ارتقاء ابي يعقوب يوسف العرش أثار بعض الاضطراب في أسرة عبد المؤمن : فقد رفض ان يُقسم يمين الولاء لأبي يعقوب اثنان من اخوته ، هما والي بجاية ووالي قرطبة اللذان ذكرا انهما باقيان وفيَّينْ لمن سمأه عبدُ المؤمن خليفةً له . واخيرا انتهتْ معارضتهما بعد سنتين .

ولم يكن أخوا الخليفة هما الوحيدين اللذين هدَّدا وحدة الصف بين الموحدين : فقد شقَّتْ عصا الطاعة بعض القبائل من سلسلة الجبال الشمالية بالمغرب الأقصى ، كغُمارة وغيرها ، واضطُرَّ الخليفةُ الى قمع هذه الثورات بالقوة . كما ثار اهلُ مدينة قفصة في افريقية في الوقت نفسه ، الا انه يبدو

---

(29) حول بداية حكم ابي يعقوب ، انظر هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لدولة الموحدين ، انظر في موضعه ، الجزء الأول ، ص 219 ـ 222 .

[ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الثالث الخاص بتاريخ الموحدين ، ص 58 وما بعدها ـ المعرِّب .]

ان ثورتهم تعود لاسباب محلية بحتة .

ومهما يكن من أمر ، فان ابا يعقوب ، عن طريق الدبلوماسية الماهرة وكذلك عن طريق القوة الغاشمة ، تمكّن من تذليل سائر الصعوبات ، واعترف به الجميع آخر الأمر خليفة ، وكان ذلك على ما يحتمل في سنة 562 هـ / 1167 م . ثم اتخذ لنفسه لقب امير المؤمنين ، بينما كان قد اكتفى في السابق بلقب أمير (30) . وحالما تيقّن من تبوئه العرش ، سلك مسلك أبيه ، فأغدق على أشياخ الموحدين ، الا انه احال السلطة الحقيقية الى افراد أسرته . ويبدو من المؤكد ان التحكم التام بحركة الموحدين قد آل في عهده الى أسرة عبد المؤمن أي ان الحركة فقدتْ روحها كلية . لكن نتائجَ هذا التغيير لم تتضح اثناء حكم ابي يعقوب ، وفي الواقع فان سلطة الموحدين ازدادتْ في عهده ، وكان للخليفة نصيبٌ طيبٌ في ذلك .

لقد كان السلطان الجديد من البربر ، وُلد في الأطلس الأعلى كوالديْه من قبله ، وكان قد تلقّى تعليما حسنا جدا . وقد أمضى وقتا طويلا في اشبيلية قبل ارتقائه العرش . واثناء مقامه في اشبيلية فتُن بالأدب والفن الأندلسيَيْن ، وقبل عودته الى مسقط رأسه كان قد اكتسب ثقافة عربية اصيلة ، ونشأ عنده ولع بالكتب والبناء ، مما ادّى الى ان تصبح مدينةُ مراكش مركزا للثقافة الفكرية .

وقد قامت صداقة شخصية بين ابي يعقوب والفيلسوف الأندلسي ابن

(30) تبدأ احدى رسائله الرسمية بهذه العبارة : « من الأمير يوسف ، ابن امير المؤمنين .. » انظر الرسالة الرابعة والعشرين ، ضمن مجموعة (سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية) ، تحقيق ليفي - بروفنسال ، الرباط ، 1941 .

طُفيْل صاحبِ (كتاب حيّ بن يقظان) (31) ، وعن طريق ابن طُفَيْل عرف ابو يعقوب الفيلسوفَ العظيم ابن رشد (انظر أسفله) وشجَّع مؤلفاتِه (32) . ومن هذه الناحية ، فانه دلَّل على انه يختلف كثيرا عن ابيه الذي كان رجلَ عملٍ في المقام الأول . ولا جدال في ان الحضارةَ الموحديةَ الاكثرَ رقةً اخذتْ تزدهر اثناء حكمَ ابي يعقوب .

ويُـجمع المؤرخون على ان حكم ابي يعقوب كان ، بعد بضع سنـوات صعبة ، عهدَ رخاء وسلام . فقد نظَّم السلطانُ احتفالاتٍ فخمةً في مدينة مراكش وكذلك في اشبيلية وغيرهما من المدن ، وكانت الضرائب تُجبي دونما صعوبة . وفضلا عن ذلك ، فانه ما ان انقضتْ ستون سنة على تأسيس المهدي في تنمل لجماعة صغيرة من اهل الجبال كانت غنية في نشاط اهلها فحسب ، حتى غدتْ امبراطـوريةُ الموحـدين حقيقـةً سياسية ضخمـة ، واكتسبتْ توازنا مُرضيا .

كذلك فان ابا يعقوب لم يؤلْ اليه ميراثٌ ضخم من ابيه فحسب ، بل استطاع ايضا ان يزيد عليه ، اذ نجح في ان يُخضع لسلطة الموحدين ذلك الجزءَ من الأندلس الذي كان قد ظل حتى ذلك التاريخ مستقـلا . وفي الأندلس ، صمد في وجه كثير من هجمات النصارى الذين أبْدَوا كثيرا من الجرأة . الا انه إجمالا اتخذ موقفا دفاعيا ، لأنه لم يتوفر فيه نشاطُ أبيه ولا

---

(31) (حي بن يقظان ..) ، تحقيق وترجمة ليون جوتييه ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1936 .

(32) عن الاتصالات بين ابي يعقوب وابن طفيل وابن رشد ، انظر ليون جوتييه : (محادثات في مراكش) في (الاسلام والمغرب (L'ISLAM ET L'OCCIDENT) ضمن كراسات الجنوب (LES CAHIERS DU SUD) 1947 ، ص 73 ـ 91 .

(AVERROES).

مواهبه العسكرية . ان غزواته ضد النصارى الاسبان لم تُكَلَّلْ دائما بالنجاح ، وانتهتْ آخرها ، التي شُنَّتْ ضد مدينة شنترين في عام 580 هـ / 1184 م ، بكارثة ، وكلّفتْ الخليفةَ حياته . لقد قام الباحث الاسباني ، امبروسيو هويثي ميراندا ، بدراسة دقيقة جدا لتلك الغزوات (33) مستعملا احيانا بعض الوثائق التي لم تُنْشر ، وهو قاسٍ ـ ويبدو انه على حق في ذلك ـ في حكمه على كفاءة ابي يعقوب العسكرية . ولكن مع ذلك فان امبراطورية الموحدين كانت ما تزال قويةً وصلبةً جدا حينما تولاها ابنه ابو يوسف يعقوب ، الذي اتخذ لنفسه فيما بعد لقبَ المنصور .

يتبارى المؤرخون في التغني بمديح المنصور ، ويعتبرون حكمه ذروةَ قوة الموحدين . وقد كرَّس كاتب مغربي معاصر ، محمد رشيد مُلين ، كتابًا من الكتب التاريخية القليلة جدا التي أُلِّفتْ باللغة العربية حديثًا للحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب الاقصى في عهد المنصور . والواقع ان حكم المنصور الذي امتدَّ خمسَ عشرةَ سنةً كان متألقا جدا .

لم يواجه الخليفةُ الجديد الصعوبات التي واجهها والده عند ارتقائه العرش : فقد اعتاد الناس الآن على نظام الخلافة الوراثية ، وكان أشياخُ الموحدين من الثراء والانقياد كعادتهم دوما . وقد بايعه الجيشُ اولا بعد ايام من وفاة أبيه ، ثم بايعه اهل اشبيلية . ولم يقُمْ عليه ايّ من افراد أسرته ، مع انه لم يكُنْ قد سمّي وليا للعهد في حياة ابيه . الا انه بعد بضع سنواتٍ ، بدأ بعضهم يُثير شكوكا خطيرة (عام 584 هـ / 1188 م) ،

---

(33) المصدر نفسه ، ص 290 ـ 312

[ابن عذارى : البيان المغرب ، 3/78 ـ 108 ـ المعرّب]

والافتراض هو ان احدهم قتله العامةُ في مدينة مراكش ، وأُعدم اثنان آخران بأمر الخليفة (34) . ومهما يكُنْ ، فان شيئا من هذا القبيل ليس بالأمر غير المعتاد بين الأسر الحاكمة الاسلامية التي يكون فيها عادة الأمراء المنحدرون مباشرة من السلالة الملكية كثيري العدد جدا .

اما الأمر الأشدُّ خطورة فهو ان ابا يوسف يعقوب اضطُرَّ ، بعد تولّيه الخلافة مباشرة تقريبا ، الى ان يواجه نوعا جديدا من الخطر هدَّد امبراطوريته تهديدًا خطيرا .

حينما وهن حكمُ المرابطين ، قام عدة افراد من أسرة بني غانية ، وهي فرع مهم من الأسرة المرابطية الحاكمة ، باللجوء الى الجزائر الشرقية (جزر البليار) واقاموا فيها دولةً صغيرةً احترفتْ الغزو البحري ، واعترفوا هناك بسيادة الخليفة العباسي في بغداد . ولم يكُنْ عبد المؤمن مسيطرا على شرق الأندلس ، ولم يحاول الاستيلاء عليه . وبعد ان تمَّ لأبي يوسف إخضاعُ شرق الأندلس ، دخل في مفاوضات مع بني غانية الذين وافقوا على إعطائه جزءًا من غنائمهم . وكان يراوده الأملُ في ان يتمكن يوما ما من حملهم على الاعتراف بسيادته ، وقد سعى عبثًا الى إدماجهم في امبراطوريته الى حين وفاته (35) .

وحينما وصل نبأ وفاة الخليفة (18 ربيع الثاني 580 هـ/29 يوليو 1184 م) الى جزيرة ميورقة ، رأى عليّ الرئيسُ الجديد لبني غانية ، ان الفرصة

---

(34) المصدر نفسه ، ص 338 ـ 340 . [ابن عذارى : البيان المغرب ، 170/3 ـ 173 ـ المغرب]

(35) حول هذه الأحداث ، انظر الفريد بيل : بنو غانية (LES BANOU GHANIYA) باريس ، 1903 .

سانحة لبعث دولة مرابطية جديدة في شمال افريقيا . فنزل الى البر في بجاية في 7 شعبان عام 580 هـ/13 نوفمبر 1184 م ، ومعه بعض المراكب وجيش صغير العدد ، واستولى على المدينة بغتةً ، ثم أرسل جنودا الى مدن الجزائر ومليانة وأشير وقلعة بني حماد ، التي استولى عليها جميعا بسهولة ، اذ لم يكنْ في المغرب الأوسط سوى عدد قليل جدا من جنود الموحدين ، وهذا دليل على ان البلاد كان يسودها الهدوء تماما . وبعد بضعة شهور ، شنَّ الموحدون هجوما مضادا واستردوا بجاية في صيف عام 581 هـ/مايو 1185 م ، واضْطُرَّ بنو غانية الى الفرار شرقا .

وحتى هذه الحادثة ، لم يكنْ قد جَدَّ شيء خارق للعادة : فقد وقعتْ غارة جريئة ناجحة بسبب عنصر المباغتة ، بيْدَ ان ذلك لم يكن الا نجاحا قصير الأمد ، نظرا للتفاوت الكبير في القوة بين بني غانية وبين الموحدين .

الا ان عليَّ بن غانية لم يظلَّ مكتوفَ اليديْن فوق الارض الافريقية . فقد اكتسب لنفسه حلفاء : بعض سكان المدن الذين كانوا قد احتفظوا بولائهم لبني حماد لانهم ، كبني غانية ، ينتمون الى صنهاجة ، ولكن الأهم من ذلك انه جمَّع حوله القبائل العربيةَ بالمغرب الأوسط ، وهي القبائل التي احتملتْ بشق الأنفس سلطةَ الموحدين .

وبالرغم عن طول المدة التي انقضتْ على إخضاعهم ، فان هؤلاء البدو الرحَّل لم يألفوا قطُّ حكم الموحدين الصارم . لذلك فان الكثيرين منهم انتهزوا ، دون تردد ، أول فرصةٍ سنحتْ لهم للتخلص من هذا النير . وانحاز بعضُ الجنود العرب في خدمة الموحدين الى العدوّ اثناء القتال (36) . وحينما

(36) هويثي ميراندا : مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية .
انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 103 .
(ابن عذاري : البيان المغرب ، 202/3 ـ المعرّب)

فرَّ ابنُ غانية شرقا تبعتْه قبائلُ عربيةٌ بكاملها من قبائل المغرب الأوسط ، كما ان معظمَ القبائل العربية في افـريقية أيَّدتْـه . ونتيجـة لذلك ، فان الموحدين لم يُضطرُّوا الى التخلي عن مهمة يائسة فحسب ، بل تحتم عليهم ايضا إخماد ثورة خطيرة داخل امبراطوريتهم . ان التحالف مع العرب يفسرُ امتداد مغامرة بني غانية زمنا طويلا ، فهي لم تنته تماما قبل عام 630 هـ/1233 م ، في وقتٍ اخذتْ فيه امبراطورية الموحدين كلُّها في التداعي .

وفي الواقع فان بني غانية لم يكونوا سوى ذريعة للثورة ضد سلطـة الموحدين ، ذلك ان قبائل شمال افريقيا لم تكنْ قد قبلتْ أبدا نظاما تَبينَ انه صارم وشديد المركزية تماما . واذا كانت القبائل المستقرة لم تُبد استياءها بعد ، فان الجماعات الرحَّل قد جمحتْ ، ولم تكنْ القبائل العربية وحدها هي التي انحازتْ علنًا لبني غانية ، بل ان جماعاتٍ من البربر أيضا ، كبني مرين في ناحية فقيق ، ظلَّتْ خارج نظام الموحـدين ، ورفضـتْ الإذعـان لقوانين هذا النظام . وليس من قبيل الصدفة ان نجد ميدان نفوذ الثائرين قد امتد من جنوب تونس وطرابلس الغرب الى السهول العالية في الجزائر : ففي هذه الرقعة الرعوية ، لم يجدْ بنو غانية تسهيلاتٍ حربيةً فحسب ، بل لقوا أيضا مساندة جانب من السكان على الأقل .

وبعد لحظة المفاجأة الأولى ، كان ردُّ فعل ابي يوسف يعقوب قويا . فقد قاد بنفسه جيشا موحديا قويا ، ونجح في إيقاع هزيمة منكرة بأعدائـه في الحامة بالقرب من قابس في 9 شعبان عام 583 هـ/14 اكتوبر 1187 م . وعلى إثر ذلك الانتصار ، قرر ان يُنزلَ في المغرب الأقصى قريبا من قلب الامبراطورية عدة قبائل من بين القبائل العربية التي كانت قد تحالفتْ مع بني غانية . وكان يرمي من وراء ذلك الى بعث اتصالٍ وثيقٍ بها حتى يتمُّ له الاحتفاظُ بسلطته . كما انه كان يعتزم استخدامَ تلك القبائل في جهاده

ضد نصارى اسبانيا (37) .

وفي الواقع ، فانه ما إنْ علِمَ نصارى اسبانيا ـ وقد شجَّعهم انتصارُهم على ابي يوسف يعقوب في شنترين ـ بالصعوبات التي كان على خليفة الموحدين مواجهتها في الجزء الشرقي من امبراطوريته ، حتى قاموا بشنِّ المزيد من الهجمات الجريئة على أراضي المسلمين في الأندلس .

ونتيجة لذلك ، ولما حسب ابو يوسف يعقوب انه قد فرغ من بني غانية وحلفائهم ، قاد غزاة مهمة الى الاندلس انتهتْ في وقعة الأرَك(انظر أسفله) غربي المدينة الملكية(انظر أسفله)في 8 شعبان عام 591 هـ/18 يوليو 1195 م . وفي تلك الواقعة أحرز المسلمون نصرًا عظيما مشهودا ، كالانتصار الذي كان قد أحرزه يوسف بن تاشفين في وقعة الزلاقة في عام 479 هـ/1086 م ، الا انه كان نصرًا دفاعيا بحتا ، دون ان يعقبه استيلاءٌ على الأراضي . وفي السنوات التالية ، قام الخليفة بغزوات في أراضي النصارى حول طليطلة ومجريط وحتى وادي الحجارة ، ولكنه لم يضمَّ أيّا من الأراضي الشاسعة التي اجتازها . والجدير بالملاحظة انه بمناسبة غزوة الأرك . نجح الخليفة ، بإعلانه الجهاد ، في الحصول على مساعدات لا من القبائل الموحدية والعربية . فحسب بل ايضا من قبائل البربر المنشقّة ، كبني مرين ، ومن قبائل ثائرة سابقا كغمارة.لذلك ، فقد كان بوسعه ان يشعر بان وحدة المغرب ـ بالرغم من ثورة بني غانية ـ ما تزال قوية بالنسبة للعدو النصراني .

---

(37) ج.مارسيه : العَرَبُ في المغرب باريس ، 1913 ،

(ALARCOS)

(CIUDAD REAL)

وقد يستخلص المرء مّما تقدم ان ابا يوسف يعقوب قضَى كلَّ سنوات حكمه في ساحة الوغى يقود عملياتٍ حربية لم تتركْ له من الوقت ما يكفي لمواصلة شؤون السلم ، الا ان الأمر في الواقع لم يكنْ كذلك . فهو ، كأبيه من قبله ، كان رجلا مثقفا ، أبدى اهتماما كبيرًا بالأمور الفكرية . وباستثناء فترة قصيرة (38) ، فانه كان راعيًا لابن رشد ، كما كان والده من قبله ، وكثيرا ما كان يستقبل الفيلسوف الذي توفي في بلاطه عام 594 هـ/1198 م .

وهو قبل كل شيء قد قام بتشييد عدد كبير من المباني الضخمة . ففي مراكش ، بنى مدينةً كاملة لإيواء بلاطه وخدماته الادارية (39) ، تُعرف الآن باسم القصبة . وفيها شيَّد مسجدا عظيما يقوم بناؤه على فكرة جديدة (40) ، وأوصل الماء اليه (14) . كما أقام بها بيمارستانا ليستعمله أهل المدينة (42) .

وفي الرباط ، حيث لم يكنْ يوجد سوى حصن صغير بناه عبد المؤمن ، أمر ابو يوسف ببناء سور هائل يحيط بالحصن تزيِّنه أبواب ضخمة ، ولعله كان يعتزم بناء مدينة كبيرة داخل هذه الأسوار (43) . وعلى أيّةِ حال ، فانه شرع في بناء مسجد ضخم من أكبر المساجد في العالم الإسلامي (44) . وفي

---

(38) هويثي ميراندا مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ص200 . (ابن عذارى : البيان المغرب ، 202/3 ـ المعرِّب)

(39) جاستون ديفردون : مراكش منذ تأسيسها ... الجزء الأول ، ص 210 ـ 223

(40) المصدر والصفحات نفسها

(41) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص 143

(42) المراكشي . المعجب ، انظر في موضعه ، ص 287

(43) هنري تراس : الفن الاندلسي ـ المغربي ، ص 288 ـ 290 ؛
جاك كاييه : مدينة الرباط حتى بداية الحماية الفرنسية ، باريس ، 1949 ، الجزء الاول ص 125 ـ 149

(44) جاك كاييه : جامع حسان في الرباط ، جزآن ، باريس ، 1954

مدينة اشبيلية يحتمل ان يكون قد أتمَّ صومعة الجامع الأعظم المعروفة باسم الدوّارة (خيرالدا انظر أسفله) وهي الصومعة التي كان والده قد باشر بناءها (45) .

اننا نعرف الكثير من تلك المباني : وكلُّها تتميز بنفس الجلال والروعة اللذينْ يتميَّز بهما الفن المعماري الموّحديّ ، الا ان المرء يرى فيها ميلا الى الضخامة والخروج على المألوف ، فجامع حسَّان في الرباط ، الذي لم يتمَّ بناؤه أبدا ، شاهد حيّ على هذه النزعة ، بخطته غير المألوفة ومقاييس بنائه الهائلة .

كل هذا شيء عظيم ويدل على ان تحسنا قد طرأ بالنسبة لفترة الحكم السابقة ، الا انه ينبغي الاعتراف بان بعض نواحي الضعف كانت تبدو ماثلة تحت المظهر الخارجي الرائع . فالعيب الواضح الأول يكمن في عدم قدرة ابي يوسف يعقوب على حل مشكلة بني غانية . ولاشك في انه أرغمهم على اللجوء الى بلاد نائية حيث لا يستطيعون ان يسببوا أذى كبيرا ، ولكنهم بقوا هناك وكانوا على استعداد لانتهاز اول فرصة للضرب مرة ثانية ـ وفي الواقع فانه لم يتمَّ إدماجهم بالإمبراطورية قط ـ . ومن ناحية أُخرى ، فانه في عهد هذا الملك ـ الفيلسوف بلغ التعصب الموحّديّ ذروته ، فاليهود الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام رسميا ، ثم اشتُبه في انهم يمارسون ديانتهم سرًا ، أجبروا على ارتداء ازياء خاصة تبعث نوعا ما على الاستهزاء ، لكي يسهلَ على المسلمين تمييزُهم (46) . وفضلا عن ذلك ، فان

---

(45) هنري تراس : الجامع الموحدي في اشبيلية ، في كتاب (MEMORIAL HENRI BASSET) باريس ، 1928 ، الجزء الثاني ، ص 253
الحلل الموشية ، انظر في موضعه ، ص 132
(46) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص 16 . المراكشي : المعجب ، ص 304
(GIRALDA)

المذهبَ المالكيَ الذي يتبعه كلُّ مسلمي شمال افريقيا تقريبا حُظر حظرًا تاما ، مع انه كان مسموحا به حتى ذلك الحين . ومما زاد الوضعَ سوءً ، ان مصنَّفاتِ كثيرةً لكبار فقهاء المذهب المالكي أُحرقتْ في الميادين العامة ، تماما كما كان المرابطون قد فعلوا قبل قرن من الزمن بأجود كتابٍ للإمام الغزالي (47) .

وفضلا عن ذلك فان المنصور ، حسبما يرويه معظمُ المؤرخين تقريبا ، كان قد فقد إيمانه بعقيدة الموحدين : فقد اعتبرَ فكرةَ عصمةِ المهدى فكرةً كاذبة ، وكان من رأيه ان لا يسترشد المسلمون بغير كتابِ الله وسُنَّةِ نبيه (48) . الا ان المنصور أدرك كذلك ان تقليدَ الموحدين كان من أسلم أسس الأمبراطورية ، ولعلَّ هذا هو السببُ في انه أظهر احتراما متزمّتًا لنُظُم لم يعترفْ في الواقع بصحتها أساسا . ويبدو من المرجّح ان تطورًا مماثلا على الأقل كان جاريا بين النُخبة من الموحدين ، فكثيرٌ من زعماء الأمبراطورية أمضوْا شطرا من وقتهم في الأندلس ، وهي بلاد كانت قد تأثرتْ كثيرا بالآراء الدنيوية ، كما أنها لم تعتنقْ قطُّ باخلاص عقيدةَ الموحدين . وبعد زيارات كهذه ، فان اولئك الزعماء على ما يُحتمل نزعوا الى الشك في كل ما يشكِّل الروحَ الحقيقيةَ للحركة في زمن ابن تومرت ، ان لم يكنْ الى رفضه .

وأخيرا ، كلما قويتْ قبضةُ أسرة الخليفة وبعضِ الأسر الموحدية الكبيرة الأخرى على الدولة ، انتابَ معظمَ القبائل ـ عربية وبربرية على حد سواء ـ شعورٌ بانها كانت في الواقع مجرد رعايا تحت سلطةٍ تزداد نأْيًا عنها ، بَيْدَ أن أُولئك الأشخاص ذوي النفوذ الذين أمضوْا أعمارهم في القصر بمدينة مراكش أو في الأندلس ، كانوا منعزلين تماما عن جماهير البربر الرازحة تحت

---

(47) المراكشي : المعجب ، ص 278

(48) المصدر نفسه ، ص 291 ـ 292

حكمهم . ولعله من الممكن ان تُستثنى من ذلك القبائلُ الموحديةُ الأولى التي كانت ما تزال تحظى باهتامٍ خاصٍ حسب تقليد ابن تومرت ، وهو التقليدُ الذي كان مُحترمًا حتى في ذلك الوقت ، الا ان تلك القبائل كانت قليلةَ العدد جدا في الإمبراطورية ، وبالتالي فانه يُخيَّل الى المرء ان ثمةَ سلطةً ظلَّتْ قويةً جدا ، الا انه كان يُنظر اليها بازدياد من قِبَلِ معظم القبائل علىَ انها سلطةٌ غريبة وظالمة .

وحيث ان بني غانية لم يواجهوا صعوبة في البقاء في شمال افريقيا طوال حكم المنصور وبعده بمدة طويلة ، فللمرء ان يفترض انهم استفادوا من ذلك الحقد الكامن في نفوسهم . ولعل الخليفة في آخر الأمر كان يحسب انه أُخضع العرب نهائيا بإنزال بعض قبائلهم على مقربة من عاصمته . ان مثل هذا الظن كان معقولا ما بقيت سلطته المركزية قوية ، بَيْدَ ان العرب الذين استقروا في سهول المغرب الأقصى المحاذية للمحيط الأطلسي لم يبدّلوا شيئا من مسلكهم السابق . وفي حقيقة الأمر فانهم لم يندمجوا في سكان المغرب الأقصى اذ ان جماعاتهم القبلية ، بدلا من ان تختفي ، كانت قد استقرَّتْ في أراضٍ هبط عدد سكانها بمقدار النصف بسبب الحروب التي دارتْ رحاها في بداية حكم عبد المؤمن . لذلك ، فان هذه القبائل العربية كانت تشكِّل دائما قوة كامنة ومستعدة لإثبات وجودها كلما سمحت الظروفُ بذلك . وقد ظلَّتْ هذه القبائل وفيَّةً لنزعاتها الاستقلالية ، وخلَقَ وجودُها مصدرا إضافيا من مصادر الاضطراب في المغرب الأقصى ، مما ادَّى الى قيام الفوضى في نهاية الأمر . وفضلا عن ذلك ، فان هذه القبائل اشتغلتْ بالرعي ، وهو عمل مارستْه منذ قرون ، في منطقةٍ كان يمكن ان تقوم فيها فلاحةٌ مُجزية للأرض . وهكذا فان الخليفة أدخل بنفسه في قلب امبراطوريته عاملاً من عوامل الفوضى السياسية والاقتصادية . ويؤكد مؤرخ متأخّر (49) ان

---

(49) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص 152

الخليفة المنصور أدرك خطأه قُبيْل وفاته ، وأعلن عن أسفه للقرار الذي كان قد اتخذه . ان هذه الحقيقة ليست أكيدة ، ولكنها تدل ، على أية حال ، على أن أهل المغرب الأقصى ، في القرن الثامن الهجري/الرابـع عشر الميلادي اعتبروا وجود القبائل العربية بينهم سببًا من أسباب اختلال الأمن .

ومع ان ابا يوسف يعقوب كان شابًا ـ فقد وُلد في عام 554 هـ/1160 او 1161 م ـ فانه لم يكن يتمتَّعُ بصحة جيدة . وقد مرض في نهاية عام 594 هـ/1198 م ، ولما شعر بدنو أجله استدعى أقاربه وكبـارَ رجـال دولتـه وخدَمه ، لكي يزوِّدهم بآخر وصاياه (50) . وقد وصَّاهم بالاتحاد حول ابنه وولي عهده ، وان يلتزموا أوامرَ الله كما وردتْ في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وان يُحسنوا معاملةَ العرب الذين كان قد أنزلهم في المغرب الأقصى ، وان يتواصَوا خيرًا « بالأيتام واليتيمة » ، اي بجزيرة الأندلس وأهلها . وكانت وفاتُه في قصره الجديد في مدينة مراكش في ليلة 22 ربيع اول عام 595 هـ/22 ـ 23 يناير 1199 (51) .

حينما توفي المنصور ، كانت امبراطورية الموحـدين ما تزال امبراطـوريةً عظيمةً وجميلة وقوية ، الا ان ابنه لم يتمكَّنْ من السيطرة عليها . وليتسنَّى له ذلك ، كان ضروريا ان يظهر بمظهر الرجل العظيم كآبائه ، الا انه لم يكنْ كذلك . ان المؤرخ عبد الواحد المراكشي كان يعرفُ الخليفةَ الجديدَ محمد الناصر معرفةً شخصية ، وقد ترك لنا الوصفَ التالي عنه ـ وهو ليس وصفا تقليديا كمعظم الأوصاف التي نجدها في كتب التاريخ المغربية ـ : كان

(50) هويثي ميراندا : مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 206 ـ 212 . (ابن عذارى : البيان المغرب ، 206/3 ـ 209 ، المعرَّب)

(51) هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين ، انظر في موضعه ، الجزء الأول ، ص 385 . [الحلل الموشية ص 133 . ابـن عذارى : البيان المغـرب ، 211/3 ـ المعرَّب]

أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهلَ العينين ، أسِيلَ الخدَّين ، حسنَ القامة ، كثيرَ الإطراق ، شديدَ الصمت ، بعيدَ الغور . وكان أكبر أسباب صمته لثغًا بلسانه ـ حليما ، شجاعا ، عفيفا عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يَعْنيه جدًا ، الا انه كان يبخِّل أولادَه » (52) . ويضيفُ مؤرخ آخر كتب بعد ذلك التاريخ هذه الصفةَ لشخصيته : لم يكنْ قادرا على ان يكلِّل أعماله بالنجاح دون جهد كبير ، وأدار امبراطوريته بنفسه معتمدا في ذلك على مشاعره الشخصية فقط (53) . وباختصار ، فانه كان رجلا هيَّابا ، متكتما ، ولعله كان سلطانا ذا لهجة آمرة ، دون ان تكون له الألمعيةُ التي يرجعُ اليها الى حد كبير النجاحُ الذي أحرزه أسلافُه . وفضلا عن ذلك ، فان محمد الناصر كان شابا صغير السن جدا حينما وليَ الخلافة ، اذ وُلد في آخر عام 576 هـ/ ربيع عام 1181 م (54) ، وبالتالي فانه كان أسهل تأثرا ببيئته وبكبار معاونيه .

ولعل التركيز على شخصية السلطان يبدو مفرطًا حينما نجد ان عوامل قوية أخرى قد تكون كافيةً بطبيعتها لتفسير مصير امبراطورية الموحدين . ومع اننا لا نقصد التقليلَ من أهمية تلك العوامل ، فان خلفاءَ الموحدين بعد عبد المؤمن تمتَّعوا بسلطة كبيرة جدا ، بحيث ان الشخصية كانت ذات اهمية عظيمة ، خصوصا في وقت كانت فيه النظمُ الراسخة للأمبراطورية ما زالت قادرةً على التحكم في القوات المناهضة للسلطة المركزية . لذلك يبدو لنا من المحتمل ان شخصية الخليفة الجديد (وهو اول خليفة افتقر الى الألمعية والنفوذ) عجَّلت التطور ، وهذا هو السبب الذي من أجله نُعيرها هذه الأهمية .

---

(52) المراكشي : المعجب ، ص 307

(53) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص 158

(54) المراكشي : المعجب ، ص 307

الضخامة بحيث يتعذَّرُ عليه حكُمها منفردا .

وفي الوقت الذي كان فيه الخليفة يسوِّى أمرَ افريقية ، اغتنم الملوكُ النصارى في الاندلس فرصة غيابه فأخذوا في مهاجمة أراضي المسلمين ـ فَعَلَ ذلك اولا ملكُ ارغون ، ثم بعد عام 605 هـ/1209 م ، ملك قشتالة . لذلك فان الناصر اضطُرَّ الى مغادرة مدينة مراكش ، حيث كان يقيم بعد عودته من افريقية ، لكي يصدَّ غاراتِ النصارى . وبعد ان استنفر الخليفة الناسَ للجهاد ، جهَّز جيشًا قويًا في رباط الفتح ، وجاز بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في شهر ذي الحجة من عام 610 هـ/مايو 1211 م ، ونزل الى ميدان القتال بُعيْدَ ذلك . وفي اثناء زحفه تكشَّفتْ عيوب خطيرة في الادارة العسكرية للموحدين : فقد تبينَّ ان عمليةَ تموين الجيش كانت دون المطلوب . وكان غضبُ الخليفة لهذا النقص كبيرا ، حتى إنه أمر بعزل موظّفين كبيريْن من منصبيْهما ـ ثم أمر بعد باعدامهما (58) ـ وفي ذلك دليل على التقصير الاداري ، وعلى سرعة الغضبِ المُفرطِ من جانب الناصر .

كانت بداية الحملة بدايةً جيّدة جدا : ففي مستهل شهر ربيع الآخر/سبتمبر استولى الموحدون على قلعة شَلْبَطرَّة(انظر أسفله)الا انه نظرًا لحلول فصل الشتاء ، أُوقفتْ العملياتُ الحربية . وحينما أقبلتْ أشهرُ الصيف ، تحرَّك الجيشُ النصراني لملاقاة الموحدين ، وكان لا يقتصر على عناصرَ قشتاليةً فحسب ، اذ ضم عناصر أرغونيَّة ، وجماعاتٍ عسكريةً من وراء جبال البورتات (البرانيز) . ولم يلبثْ الفرنسيون ان تخلوا عن

(58) هويثي ميراندا : مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 261 ـ 263 . [ابن عذارى البيان المغرب 225/3 ـ المعرّب] .

(SALVATIERRA)

ومن الطبيعي ان يحاول أعداءُ امبراطورية الموحدين استغلالَ كل فرصة ممكنة عند تغيرُّ الحكام . ولنصرف النظر هنا عن بعض حركات التمرد التي حدثتْ في منطقتيْ السوس وغُمارة المعروفتينْ بعدم الاستقرار ، فقد أُخمدتْ تلك الحركاتُ ولو ان ذلك لم يتمَّ دائما بيُسرْ . غير أن الامور في افريقية كانت تختلف عن ذلك تماما : ففضلا عن بني غانية والقبائل العربية ، برز هناك ثائرٌ جديد ، هو محمد بن عبد الكريم الرقراقي الذي قاتل العربَ أوّلا ، ثم وقف في وجه كل من الموحدين وبني غانية ، واحتلَّ المهدية لبعض الوقت وحاصر مدينة تونس . وأخيرًا قتل من قِبل يحيي بن غانية في عام 598هـ/1201 او 1202 م . وحتى لو نظرْنا الى قيامه على انه حدث عَرَضي ، فانه يمثل على الأقل أحد أعراض عدم الاستقرار القائمة في افريقية . وفي الواقع ، فانه بعد ان تخلَّص بنو غانية من الرقراقي ، استولَوْا على مدينة تونس ، وعلى كل افريقية تقريبا في غضون عام 598 هـ/1202 م .

وفي بادىء الأمر ، هُزمتْ قوات الناصر ـ التي لم تكُنْ تفي بالغرض ـ على أيدي الثائرين . وينبغي ان نضيفَ ان كثيرين من رؤساء الموحدين أبدوا ترددا في منازلة بني غانية (55) . وأخيرا جهَّز الخليفة في عام 601-1204/8 م حملةً كبيرة ، وقد أُحسن إعدادُها على غرار حملة عبد المؤمن في عام 554 هـ/1159 م ، وتوجَّه نحو الشرق في منتصف جمادى الآخرة عام 601 هـ/فبراير 1205 م (56) . ويبدو ان العمليات تمَّتْ بنظام كبير ، وقوات ضخمة وعتاد حربي لا يُستهان به . وقد فرَّ اعداءُ الخليفة من تونس التي تمَّ الاستيلاء عليها دون قتال ، وحوصرتْ المهدية ، وتمكن

(55) ابن خلدون : كتاب العبر ، انظر في موضعه ، 519/6 ـ 520

(56) هويثي ميراندا : مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 229 . [ابن عذارى : البيان المغرب ، 219/3 ـ المعرِّب]

الشيخ ابو محمد عبد الواحد ، ابن الزعيم الموحدي الكبير ابي حفص عم إنتي ، من إلحاق هزيمة ساحقة بالثائرين على مقربة من قابس ، في شهر صفر من عام 602 هـ/اكتوبر 1205 م ، واستسلمتْ المهدية في جمادى الأولى من عام 602 هـ/يناير 1206 م . وهكذا فقد تمّتْ إعادة سلطة الموحدين على افريقية .

وقد أفاد الخليفةُ درسًا من الأزمة ، إذ أدرك ان يحيى بن غانية هُزم ولكن شأفته لم تُسْتَأْصَلْ ، وانه يستطيع بسهولة ان يستغل الوضعَ اذا سنحتْ فرصةٌ اخرى . ولما كانت افريقية نائيةً عن عاصمته ، فان الخليفة رأى ان الجهةَ تحتاج الى جهاز عسكري وإداري خاص لكي يتسنّى له ان يعالج بصورة مستقلة وعلى وجه السرعة ايَّ خطر قد يهدِّدها . لذلك ولّى عليها عبدَ الواحد الحفصي الذي أبدى لتوِّه كل نشاط وكفاءة ، ومنحه سلطات واسعة (57) .

وهكذا فان الناصر خلق من تلقاء نفسه ولايةً مستقلةً استقلالا ذاتيا في امبراطوريته . وقد كان مُصيبا في ذلك في حينه ، اذ ان خطر قيام ثورة من جانب بني غانية ظل أمرًا واردا ، كما ان عبد الواحد دلَّل على ولائه له . ولكن يا له من إغراءٍ لوالٍ طموحٍ تحت تصرفه جيْشٌ قوي ، وسلطات إدارية واسعة ، ومواردُ مالية كبيرة ! وفي الحقيقة ، فان الخليفة ، دون ان يعي ذلك ، كان يُعدُّ لتمزيق امبراطوريته التي اعتبرها آنذاك من

---

(57) يؤكد التجاني (رحلة التجاني ، تونس ، ص 360 ـ 362) وابن خلدون (كتاب العبر ، انظر في موضعه ، 583/6) ان عبد الواحد لم يقبلْ المنصب الا بعد إلحاح شديد ، مشترطا ان تكون ولايته لمدة ثلاث سنوات ، وان تُطلق يدُه للعمل بحرية تامة تقريبا . اما صاحب (البيان المغرب) فلا يذكرُ شيئا من ذلك ، ولكنه يعترف بان الوالي الجديد تمتَّع بسلطات موسَّعة (هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 241) . [ابن عذاري : البيان المغرب ، 225/3 ـ المعرِّب]

القتال ، وتقدَّم الاسبان وحدهم لملاقاة جيش المسلمين الذي كان مرابطا في جبال الشارات (انظر أسفله) يحرسُ الممرات الرئيسية . وبمساعدة أحد الرعاة ، اجتاز الاسبانُ ممرًا تُرك دون حراسة ، وكان يُعتبر اجتيازه مستحيلا ، ودارتْ رحى المعركة في العِقاب (انظر أسفله) في يوم 15 صفر عام 609 هـ/16 يوليو 1212 م . وبعد قتال عنيف في اول الأمر ، تحول الصراع فجأة الى هزيمة منكرة للمسلمين الذين فرُّوا او سقطوا في ساحة القتال (59) .

وينبغي ان لا تصدَّقَ حرفيًا الأرقامُ المبالغ فيها التي ذكرها النصارى لتعظيم انتصارهم ، الا انه من المؤكد ان خسائرَ المسلمين كانت فادحةً جدا . ومع ذلك ، فان هذا الانتصار لا ينطوي على النتائج العسكرية التي كثيرا ما تُعزى اليه ، كما أوضح ذلك بحقٍ الباحث الاسبانيُّ هويثي ميراندا (60) . فان جيشَ الموحدين في الاندلس لم يُقْضَ عليه قضاءً مبرما ، فضلا عن ان قواتِ الموحدين المسلَّحة عموما لم تُشاركْ في القتال . وبالإضافة الى ذلك ، فان النصارى بعد انتصارهم لم يتمكنوا من التعجيل بشكل ملحوظ في عملية استرداد شبه جزيرة إيبرية . على ان من المهم عدمَ التقليل من قيمة وقعة العِقاب باتخاذ وُجهةِ نظرٍ بعيدةٍ في الاتجاه الآخر . فقد كان انتصارُ النصارى اولَ انتصارٍ يحُرزونه ضد مسلمي الاندلس والمغرب تحت قيادة سلطانهم ، ولهذا السبب ، فانه اكتسب قيمةً رمزية : فلم

(59) حول وقعة العقاب ، انظر هويثي ميراندا : المعارك الكبرى لحرب الاسترداد . (LES GRANDES BATALLAS DE LA RECONQUISTA) مدريد ، 1956 ، ص 219 ـ 327 .

(60) هويثي ميراندا ، التاريخ السياسي لأمبراطورية الموحدين ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 428 ـ 429 .

(SIERRA MORENA)

(LAS NAVAS DE TOLOSSA)

يكن جيشُ الموحدين هو الذي هُزم ، بل ان الهزيمـةَ لحقـت بإمبراطـوريةِ الموحدين تحت إِمرةِ الخليفة . وفي ذلك الوقت ، اعتقد الكثيرون ان في الامر قضاءً وقَدَرا ، وكان القضاءُ والقدرُ الى ذلك الحين في جانب المسلمين .

أما من وجهة نظرنا ، فان الملابسات التي تمَّ فيها إحرازُ النصر هي اكثرُ دلالة . فحالما تمركز جيشُ الموحدين في افريقيا ، ظهرتْ نواقصُ في النظام الاداري . ثم لما تَّمتْ ملاقاةُ النصارى،الذين دفعهم وضعُهم اليائس ، انهارَ جيشُ الخليفة في ساحة القتال وكأنه فجأة بلَغ نهايةَ طاقته العصبية وقوة احتماله ، ففرَّ جميعُ الجند او جُلُّهم ، بما فيهم الخليفة . وكان ذلك دليلاً على ان احدَ اللوالب الأساسية للجهاز الموحدي قد انكسر ، ولم يصمُدْ بربر ابـن تومرت او عبدِ المؤمن المعروفون بالاقدام والاستماتة في القتال . فقد استنفدتْ طاقتهم سيطرتُهم الطويلةُ على امبراطوريةٍ شاسعة ، وأخذتْ تبدو عليهم أمَارات الضعف .

ولعل زعماءَ الموحدين انفسهم كانوا مسؤولين عن هذه الهزيمة التي حلَّتْ بالمسلمين ، فقد اصبحوا أثرياء ، وارادوا ان يَنْعموا برخائهم في سلام ، لذلك لم يَعُدْ لديهم ، كما كان الحال في الماضي ، ميلٌ الى المخاطرة . وبالاضافة الى ذلك ، فلعلَّ الجنودَ سئموا حروبهم المتواصلةَ في افريقيا والأندلس . والى جانب المصامدة ، الذين كانوا في السابق قد سيطـروا تقريبـا على جيش الموحدين ، يحُتمل ان تكون قد الحقت بهذا الجيش اعدادٌ كبيرةٌ من جماعات غيرِ متجانسة ، كبعض قبائل البربر المخلصة نوعا ما ، والجنود السودانْ والغُزِّ الوافدين من المشرق ، والأندلسيين من شبه جزيرة إيبرية . وهـكذا فان جيشَ الموحدين كان هائلاً من حيث العدد ، الا انه كان متعدِّدَ الجنسيات ،

ويفتقرُ الى التماسك . وليس من الممكن تحديدُ نصيبِ كلٍ من هذه العناصر في ضعف الموحدِين العسكري ، اذ ان المعلومات المتوفـرةَ لدينـا ـ وهـي معلومات متقطعة ومشكوكٌ في صحتها ـ لا تمكّننا من التوصـل الى اية استنتاجات أكيدة . ومهما يكُنْ من امر ، فان هزيمةَ وقعة العِقاب اظهرتْ دون ادنى شكّ ان نظام الموحدين العسكريِ لم يعُدْ على ما كان عليه في زمن عبد المؤمن ، وحتى في زمن يعقوب المنصور .

ومـن الخطـل القـول انّ وقعـةَ العِقـاب ادَّتْ الى نهـايَة امبراطـورية الموحدين . فلم يكُنْ ذلك الفشلُ الـوحيد مدمِّرا إذ بقيتْ الامبراطـوريةُ متألقةً وصلبةً لسنواتً بعده ، ولم تكُنْ هزيمةُ العِقاب سوى أحد الاعراض ، بل العرَض المهم الاول للعلَّةِ الداخلية التي احدثت تآكلاً داخـل جسـم الامراطورية . ولعلَّ ما كان اكثرَ انذارا بالمرض هو ان الهزيمةَ لم تُثِرْ ايُّ ردٍّ فعل عاطفي في المغـرب الاسلامـي ، بينما كان حدَثٌ من هذا القبيل في الازمنة السابقة يثير الشعورَ بأنه يترتَّبُ على الدولة ـ وقد مُني المسلمون بمثل هذه الهزيمة الشنيعة على ايدي النصارى ـ ان تثأَرَ لهم . لكن الامر كان على العكس من ذلك ، اذ يبدو ان امبراطورية الموحدين بعد هزيمة وقعة العِقاب قد ابتُليتْ باستسلامٍ وفتور مغمَّينْ يكشفانِ عن الوضع المعنوي السائد بين رعايا الناصر . كذلك فان الخليفة ضرب مثلاً اقتدي به ، اذ انه لم يلبث بعد الهزيمة ان عاد الى مدينة مراكش حيث قضَّى عاما في خمول ، الى ان توفي في اوائل شهر شعبان من عام 610 هـ/اواخر عام 1213 م ، وهو في السابعة والثلاثين من عمره . وتختلف روايات المؤرخين اختلافـا كبيرا حول ظروف وفاته ، فهل مات مسموما ؟ (61) او قُتل عَرَضًا على

(61) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص 160 .

ايدي عبيده السودان ؟ (62) أو توفي بسبب عضةِ كلب ؟ (63) او أُصيب بنوبة صرَع ؟ (64) وليس ثمة ما يرجح إحدى هذه الروايات على الأُخَر.

وهكذا كان لامبراطورية المصامدة ، بقيادة رجالٍ ذوي كفاءة غير عادية لمدة تزيد على الخمسين عاما ، حضارةٌ متقدمة جدا . وكانت هذه الإمبراطورية قد تلقَّتْ دفعا من حركة الاصلاح الموحدية ، التي ادَّتْ الى ازدهارها . وثمة فترات تكون فيها احدى الجماعات البشرية تنتظرُ حافزا يحرِّك فجأة طاقاتِها الكامنة ، فتأخذ في تنمية حضارة مزدهرة . وكان ابنُ تومرت قادرا على ان يهيء ذلك الحافز ، كما عرف عبد المؤمن كيف يوجِّهُه ، وقد لقي كلاهما عونًا من البربر في الجبال ، واستطاعا ان ينقلا اليهم ايمانهَما ، وأظهر هؤلاء صفاتٍ كثيرةً مدهشة . وفي الواقع ينبغي ان لا يغرب عن البال ان اولئك الرجال كانوا جميعا من البربر ، وكلُّهم ، او جلهم ، وُلدوا في جبال الاطلس الاعلى ، كما ان هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها هذا الوضعُ هناك ، منذ الفتح الاسلامي . والى ذلك الحين ، كان باستطاعة رؤساء البربر ان يقاتلوا ، بنجاحٍ احيانا ، ضد المُغيرين من المشرق ، او ان يساعدوا زعيما من المشرق لتأسيس مملكة عظيمة : هكذا كانت الحالُ بالنسبة لادريس الأول وادريس الثاني في المغرب الأقصى ، ولعبد الرحمن ابن رستم في تاهرْت ، وللفاطميين في افريقية . الا ان بني زيري في افريقية وبني حماد في المغرب الاوسط والمرابطين في المغرب الاقصى اثبتوا أنهم

---

(62) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، 346/4 .

(63) الحميري : الروض المعطار ، ص 138 . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص 19 .

(64) المراكشي : المعجب ، انظر في موضعه ، ص 323 .

قادرون على تأسيس دول قوية ، لكنَّ واحدة من هذه الدول لم تبلغْ من العظمة والروْعة ما بلغه الموحدون . ذلك ان حركة الموحدين لم تنتشرْ في سائر انحاء المغرب والأندلس فحسب ، بل حظيتْ كذلك بتألق خارق للعادة . ففي فنها المعماري وأعمالها الفكرية على حد سواء ، حملت امبراطوريةُ الموحدين عاليًا مشعلَ الحضارة الاسلامية التي اعتراها الوَهَنُ باطراد منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . وفي الواقع ، فانه لا شك في ان امبراطوريةَ الموحدين لم تكن فحسب وحدةً سياسية ذات حجم غير عادي ، في المغرب على الاقل ، بل كانت ايضا شكلاً جديدا من أشكال الحضارة الاسلامية أينعَ بعد قرون من النضج البطيء . وكان للاسلام والعرب نصيبهُما في هذه الحضارة ، اذ ان حركةَ الموحدين انبثقتْ عن الدين الاسلامي ، كما ان اللغة والثقافة العربيتينْ سرُعان ما اكتسبتهما النخبةُ من الموحدين . الا ان البربر كذلك قاموا بدوْر مهم في تلك الحضارة ، وقد كان ذلك واضحا في التقشف والتواضع ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك حتى الخشونة التي يجدها المرءُ في ما أنجزه الموحدون ، وقد لطَّف من حدة هذه الخشونة ما تحلىَّ به اهلُ الاندلس من رقةٍ واعتدال وفطنة . وكان من نتيجة توحيد كل هذه التقاليد والأمزجة ، ان تسنَّى الجمعُ بين القوة ، والقيمة الفكرية ، والميل الى نوع معينً من الجمال . وهذه بالطبع هي العناصرُ الرئيسيةُ في اية حضارة عظيمة .

الفصل الثالث

الضعف والانهيار

ان هذه الإمبراطورية التي أخذتْ في التعثرِ كانت في أمسِّ الحاجة الى رئيس قادر على ان يعيدها الى قوتها السابقة . ولسوء الحظ فان الخليفة الموحدي الخامس ، يوسف المستنصر ، لم يكن زعيما قويا او موهوبا ، اذ تبيّنَ ضعفه في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده في شهر شعبان عام 610 هـ / ديسمبر 1213 م . فقد كان شابا في السادسة عشرةَ من عمره على الاكثر ، ولعله كان صبياً في سن العاشرة ـ ومعلوماتنا حول هذه النقطة ليست أكيدة (1) ـ . وكان مولعا بالملذات (اذا كان لنا ان نأخذ بأقوال بعض المؤرخين) لم يبرحْ مدينة مراكش بالمرة تقريبا (2) ، ولعل السببَ في ذلك انه لم تكنْ لديه فكرةٌ واضحة جدا عن مسؤولياته وعن الأخطار التي اخذت تُحدق بالدولة . ويُجمع المؤرخون على ان عهده كان عهد سلام ، ولعله كان آمنا اكثر من اللازم ، اذ لو كان الخليفة الجديد من طراز آبائه لبارح قصره بصورة اكثر ولجَابَ امبراطوريته التي كانت قواعدُها آخذةً في التداعي وهي في حاجة الى التعزيز . ولم يكن هدوءُ امبراطورية

(1) يذكر المراكشي وابن خلدون وابن خلكان انه كان في الخامسة عشرة من العمر ، الا ان مصادر أخرى (البيان المغرب ، الحلل الموشية ، الذخيرة السنيَة) تذكر انه كان لا يتجاوز العاشرة من العمر . انظر بشأن التفاصيل هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 275 ، الحاشية رقم1 .

(2)[ابن عذاري : البيان المغرب ، 247/3 ـ المعرّب .]

الموحدين ظاهرةً طيبة فى وقت كان فيه النصارى يحاولون توطيد انتصارهم في وقعة العقاب ، وبنو غانية في حركة دؤوب ، وقد اخذتْ قبيلـةُ بنـي مرين ـ وكانت الى ذلك الحين ما تزال هادئة وراء التخـوم الصحـراوية للأمبراطورية ـ تتقدم في ناحية تازة وتُوقع الهزيمة بجنود الموحدين الذين حاولوا دفعَها .

وفي الحقيقة ، فان حكم المستنصر يتميَّز بسلسلتينْ من الأحداث تبيِّنان مدى عمق التحول الذي مرَّتْ به فعليا امبراطوريةُ الموحدين . فقد كان الخليفة اولا صغيرَ السن جدا بحيث تعذَّر عليه ان يحكم بمفرده ، لذلك لم يلبثْ ان وقع تحت تأثير وزرائه . واذا كان أفرادُ اسرة الخليفة يحظوْن بهيبة حقيقية بين كافة الوجهاء والقبائل ، فان الوزراء ، الذين ظلت سلطتُهم غير ثابتة كانوا محسودين وكثيرا ما وجدوا انفسهم موضع كراهية لكونهم افرادًا من قبيلة مبغوضة ، وكانوا يميلون الى إذلال خصومهم من القبائل الأخرى او التخلص منهم . وفضلا عن ذلك ، سوف نلاحـظ ان الـوزراء كانـوا يتطلعون الى الاستئثار بالسلطة الفعلية ولا يترددون في خلع الخليفة الحاكم او تعويض خليفة متوفى بآخر يسهل التحكمُ فيه ، اي طفل او رجل متقدم في السن يقع اختياره .

أما الحدث الثانـي فهـــو ظهور بني مرين (3) . وبنو مرين قبيلة رعويّة من البربر اضطُرَّتْ بعد وصول البدو من العـرب الى المغـرب في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي الى ترك مواطنها

(3) حول بداية بني مرين ، انظر بصورة رئيسية (الذخيرة السنيّة) لمؤلف مجهول الاسم ، تحقيق ابن شنب ، الجزائر ، 1921 . وانظر كذلك ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 184 .

السابقة في منطقة بسكرة والاستقرار في السهول العالية حول واحة فقيق ولما تولىَّ الموحدون السلطة في شمال افريقيا ، لم تقبلْ هذه القبيلةُ العيش تحت سلطانهم ، فأذن الموحدون لها بالاقامة على تخوم الصحراء . وهذا يدلُّ ، في جملة ما يدل ، على ان امبراطورية الموحدين في المغرب الأوسط لم يتجاوزْ سلطانُها المنطقة الساحلية المعروفة بالتل . وهناك على اطراف الصحراء عاش بنو مرين حياةً لم يقعْ فيها ما يجدر ذكره ، يرعَوْن ماشيتهم بين منطقة فقيق والوادي الاوسط لنهر ملويَّة : فكانت قبيلةً خاملة الذكر ، متوسطةَ العدد ، حريصة على حريتها . وفي مناسبة واحدة فقط كان بنو مرين على استعداد للتعاون مع الموحدين ، وذلك حينما استنفر الخليفةُ المنصور الناسَ للجهاد ضد الكفار النصارى ، وهو الجهاد الذي كُلِّل بانتصار الأرك . آنذاك أمدَّ بنو مرين السلطانَ بقوة من المحاربين تحت إمرة رئيسهم الأعلى مَحْيو الذي توفي متأثرا بجراح أُصيب بها في وقعة الأرك .

وبعد سنة من هزيمة المسلمين على ايدي النصارى في وقعة العِقاب ، ظهر بنو مرين فجأة في المنطقة الجبلية بمحاذاة الساحل ، الى الشمال من نهر ملويَّة ، وكان في نيتهم بوضوح الاستقرار في جهة كانت فيها سلطةُ الموحدين الى ذلك الحين امرًا مسلّما به . فهل حدثَ امرٌ نجهله جعلهم يرحلون عن مراعيهم المعتادة ، كحدوث جدْبٍ مثلا ؟ ليس هذا بالامر المستحيل ، بَيْدَ أن احدًا من المؤرخين لا يذكر حدوثَ شيء من هذا القبيل . كما يجوز انهم احسُّوا ، بفضل استعدادهم الفطري كأبناء صحراء ، بأن امبراطوريةَ الموحدين اهتزّت من جذورها اهتزازًا عميقًا ، وكانوا في وضع يمكنهم من تجربة حظهم بالاستقرار في أراض اصلح من أراضيهم ، ويبدو أنه لم تكن لديهم مطامح سياسية أنذاك . فكانوا والحالة تلك

لا يسعَوْن الا الى تحسين احوالهم المعيشية . ومهما يكنْ من أمر ، فان ثمة تطابقا زمنيًا مدهشًا بين هزيمة العقاب وظهور بني مرين في أراضٍ لم يكنْ يُسمح لهم من قبلُ قطُّ بالدخول اليها ، ولم يكونوا قد ابدَوْا اهتماما بها .

وهكذا فان عهد المستنصر لم يكنْ خاليا من المشاكل ، ومن الواضح أن الضعفَ الداخليَ لإمبراطورية الموحدين أصبح خلال هذه الفترة أكثر خطورة واستشراءً ، ولو ان ذلك لم يظهر فوْرا . وكما جاء في الانجيل : « ويلٌ لمدينةٍ أميرُها طفل ! » .

وما ان توفي المستنصر في مدينة مراكش في عام 620 هـ / 1224 م (بسبب حادث كما يبدو) حتى اخذتْ امبراطورية الموحدين تتصدع . واصبح انهيارُ سلطتهم تامًا بحلول عام 646 هـ / 1248 م ، حينما توفي الخليفةُ السعيد في منطقة تلمسان اثناء محاولته اعادة بناء امبراطورية آبائه . أجلْ احتفظ الخلفاء بشيء من السلطة في مدينة مراكش حتى عام 668 هـ / 1269 م . وبقي أثرٌ من سلطة الموحدين في تنمل حتى عام 674 هـ/ 1275 م . الا ان هؤلاء كانوا مجرد « ملوكٍ صغار » على رأس ممالكَ صغيرةٍ جدا لا يمكن مقارنتُها بممتلكات عبد المؤمن او يعقوب المنصور .

وليس من المجدي ان ندرس هذا الانهيارَ السريع بالتفصيل ، اذ ان هذه المهمةَ اضطلع بها بكل دقة الباحثُ الاسباني أمبروسيو هويثي ميراندا (4) . لكن الجدير بالملاحظة هو ان فترة التفسخ هذه شبيهةٌ بفترات

(4) هويثي ميراندا:التاريخ السياسي لامبراطورية الموحّدين . انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 51 وما بعدها. وانظر كذلك مقاله بعنوان: حكم الخليفة الموحدي الرشيدبن المأمون، مجلة هسبريس، العدد 41 (1945) ، ص 9 ـ 45 .

الانحطاط لدولة كبيرة ، وتتميَّز بقدر كبير من الفوضى وبوقـوع احداثٍ مؤسفة كثيرة . وبدلا من سرد بيان مفصَّـل بالحقائـق ، سنحـاول تحليلَ الكيفية التي ادَّت الى ذلك ، لمعرفة الوسيلة التي تمَّ عن طريقها تقويضُ وحدة الشمال الإفريقي بمثل تلك السرعة . ولكي يتسنَّى إدراك الأسباب ، يستحسن تقديم عرضٍ موجز للاحداث .

بعد وفاة المستنصر مباشرةً أُتي الى الحكم برجلٍ متقدم في السن ، لا يقل عمره عن ستين سنـة ، وليس له اي طمـوح ، هو عبـد الواحـد الملقَّب بالمخلوع ، وقد تمَّ ذلك في مدينة مراكش على أيديْ أشياخ الموحدين الذين حسِبوا انه سيكون اداةً طيِّعـةً في أيديهـم (5) . وكان الباعـثُ على هذا التعيين واضحًا : فان الأُسرَ الموحديةَ الكبيرة اقتنعتْ بأن زمنَ أسرة الخليفة قد ولىَّ ، وبأنها تستطيع التحكم في مصائر الامبراطورية بعد ان عانت من سيطرة عبد المؤمن وعقبِه مدةً تربو على الثمانين عاما . الا ان أسرة الخليفة كانت حتى ذلك الوقت لا تزال تحْظى بالمحبة بين الكافة ، وكان يتعذَّر الاطاحةُ بها عن العرش . ولحسن الحظ ، فان افراد هذه الاسرة كانوا من الكثرة بحيث يتسنَّى اختيارُ شخص لتولي الحكم لا يحُدثُ ضررا بالمرة ، واول زعيم وقع عليه الاختيار شخص مسنّ ، وكان الحُكَّام الذين جاؤوا بعده اطفالا .

وإذ لم تقعْ استشارة اشياخ الموحدين في الأندلس بشأن اختيار الخليفة الجديد ، وكان احدُ هؤلاء الأشياخ قد فقد حُظْوَتَهُ بتحريضٍ من احد زعماء

(5) هويثـي ميرانـدا : مجموعـة مصنّفـات تاريخية عربية ، انظـر في موضعـه ، الجـزء الثاني ، ص 287 ـ 288 . [ابن عذاري : البيان المغرب ، 3/247 ـ 248 .
وورد اللقب في النص الأنجليزي المترجم « المسلوخ » ، وهو خطأ واضح ـ المعرّب] .

مدينة مراكش ، فانه شرع في البحث عن خليفة آخر ووجد ضالّتَه في شخص والي مرسية ، العادل ، احدِ افراد أسرة عبد المؤمن ، وهو في الواقع احدُ ابناء المنصور (6) ، وبالطبع فان الخليفتينْ لم يتفقا ، فقام بينهما صراعٌ التحمت فيه عساكرهما بقصد الاستيلاء على مدينة مراكش عاصمة الإمبراطورية . بالاضافة الى ذلك ، ظهر مُطالبٌ ثالث بمنصب الخلافة هو عبد الله البيَّاسي في الأندلس حيث كانت ترابط عساكرُ قليلة ، وحاول الحصولَ على مساندة ملوك النصارى (7) .

ولم يطل الأمد بالخليفةُ العادل فاغتيل في مدينة مراكش بعد استيلائه عليها ، كما كان قد حدث لمنافسه المسنِّ التعس . ثم ثارتْ عدةُ قبائل من بينها قبيلة الخُلْط العربية ، وكانت هذه اول مرة يشارك فيها العربُ في الصراع على السلطة ، الا انهم بعد ذلك شاركوا بصورة مستمرة ومطردة وقاموا بدوْر مهمٍ في جميع الأحداث التالية تقريبا .

وبعد وفاة العادل مباشرة ، طالب بالخلافة شخصان أحدهما في مدينة مراكش ، والآخر في الأندلس . اما الأول فكان شابًا في السادسةَ عشرةَ من عمره أتي به الى الحكم زعيما تنمل وقبائل هِنْتاتة ـ وهما من أبرز شخصيات الموحدين ـ لكي تتسنَّى لهما السيطرةُ على الدولة ، معتقدين ان في وُسعهما ان يفعلا به ما يشاآن.ويبدو انْ هذا الخليفة ـ واسمه يحيى ـ لم تتوفر فيه اية خصلة سوى المثابرة العنيدة في المطالبة بحقّه في العرش . وأمّا الرجل

(6) المصدر نفسه ، ص 289 والحاشية ل . { ابن عذاري : البيان المغرب ، 248/3 ـ المعرَب] .

(7) المصدر نفسه . ص 292 . { ابن عذاري : البيان المغرب ، 249/3 ـ 250 ، المعرّب } .

الثاني ـ أبو العلاء ادريس ـ الذي تلقَّب بالمأمون ، فهو ابن آخر للمنصور ، يظهر انه لم يكنْ ضعيفَ الشخصية . حاول الحصول على مساندة نصارى اسبانيا ، ويبدو انه دفع ثمنًا باهظا بعض الشيء للحصول على بضع مئات من العسكر وضعهم ملك قشتالة تحت تصرفه : ومن بين التنازلات التي قدَّمها المأمون انه قطع على نفسه عهدا بالاذن للنصارى ببناء كنيسة في مدينة مراكش يُسمح لهم فيها بممارسة ديانتهم دون قيد . بل يُسمح لهم بضرب نواقيس الكنيسة ايضا . مع ما في ذلك كله من مخالفة للعرف الاسلامي (8) .

فهل ثمة صلة بين هذه السياسة الخاصة بالتنازل المفروض على اساس المعاملة بالمثل، وبين إجراء آخر مهم جدا اتخذه الخليفة المأمون نفسه ؟ ذلك ان جميع المصادر المتوفرة تتفق على ان المأمون ابطل احدى عقائد الموحدين ، ويذكر مؤرخ ذو مكانة عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ان المأمون عبَّر بنفسه عن معتقده في كتاب رسمي يقال إنه كتبه بخط يده ووجَّهه الى الفقهاء والرسميين في الإمبراطورية خط فيه : « ولْتعلموا انا نبذنا الباطل واظهرنا الحق وأن لا مهدي الا عيسى بن مريم .... وتلك بدعة قد ازلناها ... وقد ازلنا لفظ العصمة عمَّنْ لا تثبت له عصمة . فلذلك ازلنا عنه رسمه ، فتسقط وتبتّ وتُمحى ولا تثبت ، وكان سيدنا المنصور رضي الله عنه همَّ ان يصدع بما به الآن صدعنا ، وان يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا ، فلم يساعده لذلك امله ، ولا اجَّله اليه

(8) المصدر نفسه ، ص 313 والحاشية ل . [ابن عذاري : البيان المغرب ، 281/3 ، المعرّب] .

اجله » . ويضيف المؤرخون ان الخليفة كتب بخط يده الى بلاده كلها بإزالة اسم المهدي بن تومرت من السكة والخطبة ، وبالتالي ازالة تلقبه بالمعصوم . وفي الوقت نفسه ، أُسقطت بعض عبارات بلسان البربر كانت ما تزال تستعمل في صلاة الجمعة (9) .

ولا يذكر المؤرخون لسوء الحظ اية معلومات عن الأسباب التي حدتْ بالمأمون الى اتخاذ هذه التدابير غير العادية . فهل كان ذلك بوحي من ايمانه الشخصي ام برًا بوالده ، اذ اكد ان والده كان يحمل الفكرة نفسها ولكنه لم يجد فرصة لإعلانها ؟ أم هل كان لديه بالأحرى هدف سياسي ، وهو الرغبة في ان يُنظر اليه على انه مصلح جديد ، فيكون لذلك في مركز يمكّنه من ان يجمع حوله جميع طاقات الموحدين ؟ ان الوثائق المتوفرة لا تُعيننا على التوصل الى قرار حاسم بشأن هذه الافتراضات المتضاربة ، الا ان الشيء الأكيد هو ان الاجراء الذي اتخذه ادى الى تفاقم مشاكل الموحدين . ذلك ان السنوات الخمس التي تلت وفاة المستنصر شهدت اختلالا كبيرا في الأمن وان ظل الكيان الموحّدي قائما ، ومن المحتمل ان تدعيمه كان ما يزال ممكنا لأن المبادىء الأساسية للحركة بقيتْ كما هي ، يبْد ان عقيدة الموحدين نفسها وقع انكارها جزئيا على اثر اعلان المأمون . فماذا بقي اذن من روح الحركة الموحدية ؟ لا شيء ، اذا ما اعتبرنا انها قامت على فكرة المهدي وعصمته بالذات .

وكما بيَّنَّا سابقا ، فان عبد المؤمن استغل حركة الموحدين لفائدة أسرته ،

---

(9) المصدر نفسه ، ص 318 ـ 320 ـ الحلل الموشية ، ص 137 .
[ابن عذاري : البيان المغرب ، 3/267 ـ 268 ، المعرّب] .

وفي زمن المأمون اصبحت تلك الأُسرة علامة على الانقسام ، اذ ان الكثيرين من افرادها حاولوا انتزاع السلطة الواحد من الآخر . واذْ انقسمت اسرةُ عبد المؤمن على نفسها وقُضي على اسطورة المهدي ، فان جماعة الموحدين أصبحت جسدا بدون روح ، قوامها افراد او جماعات تساورها الشكوك ، ولم تعُدْ تدري اي طريق تسلك . ومن السهل ان يتصوَّر المرء موقف كثير من الموحدين حينما علموا بهذا النبإ المذهل ، فقد استاء منه الكثيرون واعتبروه إهانة لحقت بهم ، وحاولوا التشبّث بعظمة ماضي الموحّدين وبأسطورة ابن تومرت ، كما فعل أبو زكريا الوالي على افريقية وحفيد الشيخ ابي حفص عمر إنتي ، الذي احتفظ في خطبة الجمعة بالدعاء للمهدي بن تومرت ، ومنعَ الدعاء للخليفة الموحدى القائم (10) . وهكذا كان القرار الذي اتخذه المأمون سببا مباشرا في حدوث انشقاق في امبراطورية الموحدين ، ولا شك في ان هذا الانشقاق لم يكنْ قد تفاقم بعد حتى استحال صدعا يصعبُ رأبه ، فأبو زكريا لم يتخذ سوى اجراء بسيط للاحتفاظ بالوضع كما هو ، منتظرا ما سيحدث . ومع ذلك فان افريقية لم تعُدْ على وفاق مع جزء من الإمبراطورية لا نعرفه بالتأكيد ، لان المطالبيْن بالخلافة كانا يتنافسان للاستلاء على العاصمة مراكش ، مما جعل من الصعب التأكد من معرفة مقر السلطة الرسمية . والى جانب مشكلة الفوضى السياسية ، اضيف ارتباك معنوي كبير بالنسبة للكثيرين من الناس على اثر اعلان المأمون : فكانوا وكأنهم فقدوا كل سبب صحيح يدعو الى الثقة والأمل .

---

(10) انظر ر . برونشفيج (BRUNSCHVIG) : شرق المغرب تحت حكم الحفصيين (LA BERBERIE ORIENTALE SOUS LES HAFSIDES) باريس ، 1940 ، ص 21 .

وقد دام هذا الحكم ـ المدمّر عن غير قصد ـ حوالى اربع سنوات من عام 624 الى 629 هـ / 1228 الى 1232 م . وفي وقت كان الوضعُ فيه ما يزال يكتنفة الغموض ، وحينما لم يكنْ باستطاعة المأمون بعدُ التخلص من منافسه ، بل شهد أحد اخوته يقوم عليه في سبتة ، توفي وفاةً طبيعية في طريق عودته من سبتة حيث كان يحاول عبثًا التخلصَ من الثائر (11) .

وقد خلفه ابنُه الاكبر الرشيد ، وكان صبيا في الرابعة عشرةَ من عمره على الأكثر ، جيء به الى الحكم بفضل الجهود المشتركة لوالدته (جارية نصرانية) وبعض الرؤساء العسكريين . ولم تكن شخصيةُ الخليفة الشاب قد تكوَّنتْ بعد ، ولم يفعل سوى اتباع نصيحة مستشاريه الأكبر منه سنـا . ومهما يكنْ من أمر ، فانه اعاد عقيدةَ الموحدين فورًا . الا ان الخطوة جاءتْ متأخرةً لسوء الحظ : فقد اتصل القضاء بما هو كائن ، ولم يُقدَّرْ من بعد ذلك لقوة الموحدين المعنوية ان تعود الى ما كانت عليه في السابق . ومن ثم فصاعدًا عمّتْ الفوضى ، ولم يعُدْ لأحد ثقةٌ في الدولة . واخذ الأفراد ـ وخصوصًا الفئات العرقية المختلفة ـ يتصرفون تبعًا لمصالحهم المباشرة ، لا لما تقتضيه المصلحة العامةُ على المدى البعيد . وكانت القبائلُ العربية احدى الفئات التي سلكتْ هذا المسلك . وبالاضافة الى ذلك ، اخذ العساكر المرتزقة النصارى ـ الذين ظلوا اوفياء لأولئك الذين دفعوا مرتباتهم ـ يناصرون هذا الجانب تارةً ، والجانب الآخر طورا ، بصورة مفاجئة ، رائدُهم في ذلك مصالحهم الخاصة : فالعساكر المرتزقة الذين عملوا في جانب منافس

---

(11) هويثي ميراندا : مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ص 338 .

{ ابن عذاري : البيان المغرب ، 281/3 ـ المعرّب } .

الرشيد تخلَّوْا عنه فجأةً . مما مكَّن الخليفةَ من الاستيلاء على سجلماسة في عام 631 هـ /1233 م بدون قتال تقريبا . وكانت سجلماسة آنذاك احدى المدن الرئيسية في الجهات الصحراوية من المغرب الاقصى (12) .

وفضلا عن ذلك ، بدأتْ الحرْبُ الأهليّةُ تُلحق ضررا كبيرا باقتصاد البلاد . فقد تضرَّرتْ كثيرا أهمُّ المدن التي كانت الأهدافَ الرئيسيةَ للمعارك . لذلك أخذ المواطنون الذين كانوا الى ذلك الحين اوفياءَ لنظام الحكم يتخلون عن قضية الموحدين ، وكان ولاؤُهم ـ الى حد كبير ـ يعود الى ما كان يسود البلادَ من أمن واستقرار . وأخيرا ـ وهو الأمر الأكثر خطورة ـ انفصلتْ اجزاءُ برمتها عن الأمبراطورية . ومالبث النصارى الاسبان ان اغتنموا ذلك الوضعَ واستولَوْا على اجزاءَ مهمةٍ من اراضي المسلمين : فسقطت قرطبة في يد ملك قشتالة عام 633 هـ / 1236 م ، واحتل ملك أرغون بلنسية في عام 636 هـ / 1238 م ، وفي افريقية ذاتها ، فان الأمير الحفصي ابا زكريا الذي سبق له ان اتخذ في عهد الخليفة المامون خطوة فعلية نحو الاستقلال حينما توقف عن ذكر اسمه في صلاة الجمعة ، بادر باعلان استقلاله التام في عام 634 هـ / 1236 م ، وذكر اسمَه هو في الخطبة بعد ذكر اسم الامام المهدي ، مما يدلُّ بوضوح على انه اعتبر نفسه الوارثَ الحقيقيَّ الوحيدَ لنظام حكم الموحدين(13) . وفي الوقت ذاته ، فان بني عبد الواد ، وهم قبيلة من البربر كانوا قد اعترفوا بسلطة عبد المؤمن في عام

---

(12) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص 68 ، انظر كذلك مقال ميراندا بعنوان (حكم الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون) في مجلة (هسبريس) ، العدد 41 (1945) ، ص 27 [ابن عذاري : البيان المغرب ، 323/3 ـ المعرّب] .

(13) ر . برونشفيج : شرق المغرب تحت حكم الحفصيين ، انظر في موضعه .

539 هـ/1145 م وحصلوا في مقابل ذلك على السيطرة على مقاطعة تلمسان ، أعلنوا استقلالهم ايضا تحت إمرة رئيسهم يغمراسَنْ بن زيَّان (14) . اما بنو مرين ، فقد أصبحت لديهم الآن طموحاتٌ سياسيةٌ ، وأخذوا في جباية الضرائب في الجزء الشرقي من المغرب الأقصى ، مما يدل على نيتهم في انتهاز اية فرصةٍ مواتيةٍ لتوسيع رقعة سلطانهم الى ساحل المحيط الاطلسي .

ومع ان الرشيد شن صحبة اتباعه قتالاً مستمرًا (وكانت بعضُ القبائل والمدن قد اعترفت بسلطته فعلاً) ، ومع ان منافسه على الخلافة قتل على أيدي إحدى القبائل العربية ، فانه ـ حين توفي عام 640 هـ / 1242 م إثر نزلة المَّت به اثناء تنزهه ـ لم يترك لخلفه الا امبراطورية ممزَّقةَ الأوصال و كان الخليفة الجديد ، السعيد ، اخاه الاصغر ، وهو مولَّد حادُّ الطبع ، لكنه نشيط . وكانت بداية خلافته مثيرة للشفقة : فقد نشبت الثورات في كل مكان ، وعمَّت الفوضى الأجزاء الباقية من امبراطوريته . ومع ذلك ، فان السعيد أبدى نشاطا غير عادي ، وأخذ على عاتقه استعادة امبراطورية آبائه بقوة السلاح . فبدأ باعادة سلطته في المغرب الاقصى ، وحصل على خضوع بني مرين الذين آثر زعيمهم ابو يحيى ان ينتظر ويرقب النتيجة . ثم جمع جيشا قويا وقام بمهاجمة الثائرين في تلمسان ، الا انه كان ضحية جرأته ، فلقي مصرعه في كمين نُصب له على مقربة من تلمسان في عام

---

(14) عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ، 7/163 ـ 164 .
يحيى بن خلدون : بغية الروّاد ، تحقيق وترجمة الفريد بيل ، الجزائر ، 1904 ، ص 3 ، 147 .
استولى يغمراسن على السلطة في ذي القعدة عام 633 هـ/7 يوليو ـ 5 اغسطس 1236 م .

تحت سلطة مركزية واحدة . وفضلا عن ذلك ، اذا كان اختيار مدينة مراكش عاصمة للمغرب الأقصى موضع نظر، لأنها ليست في موقع متوسط حتى بالنسبة لتلك البلاد ، فانها كانت نائية جدا عن شمال افريقيا ككل ، ناهيك عن الأندلس . ان موقع العاصمة كان في الواقع احد الأسباب التي حملت الخليفة الناصر على جعل افريقية في عام 603 هـ / 1207 م ولاية شبه مستقلة تحت سلطة واحد من سلالة ابي حفص عمر إنتي .

ومهما يكنْ من امر ، فان التحدي للاحتفاظ بسلامة الامبراطورية الموحدية تمَّ بنجاح لمدة جاوزتْ نصف قرن آخر ، وهذه الحقيقة وحدها ينبغي ان تعطينا انطباعا حسنا جدا عن الادارة الموحدية . اننا لا نعرف بالتفصيل النظام الاداري للموحدين ، الا انه ينبغي ان نقدِّر ما حقّقه في وقت كانت فيه الامبراطورية في أوجها . فهذا النظام الذي تصوَّره ابن تومرت في تنمل وكيَّفه عبد المؤمن ليلائم امبراطورية مترامية الأطراف قد دلَّل على صلاحه ، ولا يمكن ان يُعزى الانهيار اليه ، الا انه كان من الضروري ان تتولى يد قوية جدا توجيه ادارة معقدة من هذا القبيل لان لا مفر من ان يعتريها الضعف اذا كان الخليفة رجلا عاديا او من الدرجة الثانية . ومن الجلي انه يمكن اعتبار النظام الموحدي غير رديء في حد ذاته ، اذ باستطاعته ان يؤدي وظيفته على خير وجه ما كانت القوة المحركة له ـ الخليفة ـ صالحة ، وطبيعي ان يتوقف الجهاز كله عن العمل في اللحظة التي يعتري فيها القوةَ المحركة خلل .

ولا يمكن ان نرى الا سببا واحدا للضعف ، سببا خارجيا ذا اهمية ، هو

646 هـ / 1248 م (15) . وفي العام نفسه ، استولى ملك قشتالة على اشبيلية ، وبذلك لم تَبْقَ في ايدي المسلمين في الأندلس سوى رقعة ضيِّقة تضم مالقة وغرناطة والمرية . ومنذ ذلك الحين انتهت امبراطورية الموحدين . أجلْ ، ظل الخليفة قائما في مدينة مراكش لأكثر من عشرين عاما ، اي حتى عام 668 هـ / 1269 م ، لكن سلطته لم تتجاوز رقعة ضيِّقة مثلَّثة الشكل تقع بين وادي ام الربيع وسلسلة الأطلس الأعلى والمحيط الأطلسي . وحينما استولى بنو مرين على مدينة مراكش في عام 668 هـ / 1269 م ، بقيتْ حكومة موحدية في تنمل ، واستمرت هناك حتى عام 674 هـ / 1275 . وهكذا فان الموحدين اختتموا نظام حكمهم ، بعد ان جُرِّدوا من ممتلكاتهم ، في الوادي الضيِّق الذي بدأ به أمرهم في عهد ابن تومرت . وكان حكمهم قد امتد في وقت ما فشمل المغرب الاسلامي بأسره . والحقيقة ان امبراطورية الموحدين لقيتْ حتفها في عام 646 هـ / 1248 م ، بعد إخفاق الخليفة السعيد ، ثم استغرق انهيارها التام نحو خمس وعشرين سنة .

هل من الضروري ـ بعد الذي ذكرناه ـ ان نضيف ان حضارة الموحدين ، خلال فترة الضعف ، قد هوتْ بسرعة تفوق سرعة هويها السياسي ؟ ومما له دلالة خاصة بالنسبة لنا ، الأثر الموحدي الوحيد الباقي من تلك الفترة ، ونعني بذلك اسوار مدينة فاس التي دكَّها عبد المؤمن حينما استولى على المدينة ، ثم أمر الخليفة الناصر باعادة بنائها بعد هزيمة العقاب مباشرة . ان

(15) هويثي ميراندا : مجموعة مصنَّفات تاريخية عربية ، انظر في موضعه ، الجزء الثاني ، ص 193 ـ 194 .
[ابن عذاري : البيان المغرب ، 3/387 ـ 388 ، المعرّب] .

هجمات الممالك النصرانية في اسبانيا ، اذ اكتفى الموحدون هناك ـ بالرغم عن قوتهم الهائلة ـ بصدٍّ هجمات النصارى . والانتصار الباهر في وقعة الأرك مثال جيد للخطة التي توخوها : فقد كان انتصارا دفاعيا لم يستغلَّه الخليفة ، ولا يتَّضح مما سجله المؤرخون هل الخليفة لم يستطع استغلال النصر ، أم لم يكن راغبا في استغلاله . وقبل ذلك ، كان والده ابو يعقوب قد شنَّ غزواتٍ ضد اراضي النصارى فشلت كلها ، وأودتْ آخرها بحياته ، وهكذا فان الموحدين كانوا يواجهون دائما على حدودهم الشمالية ـ وهي حدود طويلة جدا وحمايتها صعبة للغاية ـ ممالك لم يكنْ في مقدورها ان تفعل شيئا ضد الأمبراطورية ما بقيت في أوج قوتها ، لكن هذه الممالك كانت دائما على استعداد لاستغلال اقل عثرة ، كما حدث مثلا في عام 609 هـ / 1212 م في وقعة العِقاب ، وازداد هذا الاستعداد بشكل ملحوظ حينما تُركتْ الأندلس وشأنها نتيجة للفوضى التي عمَّتْ صفوف الموحدين . ويمكن تقدير الافتراض التالي : وهو ان هجمات النصارى لم تؤدِّ الا الى نتائج محلية ولم يكنْ لها عمليا اي تأثير على وضع الأمبراطورية الداخلي ، الا اننا من ناحيتنا لا نستطيع ان نفترض ذلك . لقد كانت حركة الموحدين حركة دينية قبل كل شيء ، نشأتْ وتقدمَّت نتيجة لحماس ديني كبير ، وحين ظفرت الجيوش النصرانية بانتصارات على جنود المسلمين (وكانت كما تفيد المصادر المعاصرة ألدَّ القوات عداء في ذلك الجزء من العالم الأسلامي) كان ذلك ضربة قاسية نالت القوة الدافعة النفسية لحركة الموحدين . ولذلك فمن المرجح ان هزيمة العقاب ، والانتصاراتِ التي أحرزها النصارى في عام 633 هـ / 1235 م لعبتْ دوْرا مهما في انهيار الموحدين ، من خلال تأثيرها النفسي القوي على عقول المسلمين ورسالتهم . ولم يكنْ هذا بالطبع السببَ

عملا من هذا القبيل يكشف عن اعراض حالة التفكير السائدة في الامبراطورية في عام 608 هـ / 1212 م : فقد كان الخليفة متخوفا من ان ينقل العدو النصراني الحرب الى قلب المغرب الاقصى . وفيما عدا ذلك ، لم يَبْقَ شيء من الآثار الموجودة : فالقصور والمساجد والمصنَّفات الفلسفية ، وحتى المصنَّفات الأدبية ، اختفتْ كلها من المسرح ، ولم يبق يَكتب عن الدولة الموحدية بعد عام 617 هـ / 1220 م غير المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي الذي هاجر الى مصر لسبب لا نعلمه . وفي امبراطورية الموحدين ذاتها ، اصيبت الحضارة بالعُقم والسُبات ، وانتهى فجأة السيل الفني والأدبي الذي ظهر في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، اذ لم يَبْقَ لدى الأمبراطورية الوقت او الرغبة في شيء سوى الحرب الأهلية .

* * *

بقي علينا الآن ان نحاول التفكير في الأسباب الحقيقية لهذا الانهيار ، وهذا يحتم علينا ان ندرس باهتمام الأحوال العامة للحياة السياسية في شمال افريقيا في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد .

ان اول تعليل ـ وأوضحه ـ للفشل النهائي لأمبراطورية الموحدين هو انها شاسعة جدا ، في وقت كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة وصعبة ، وفي رقعة اضافت « الطبوغرافيا » فيها صُعوباتٍ خاصة الى صعوبات المسافة ، فقد كان ثمة شيء من الغرور في المجازفة الاحتفاظ بجماعة سياسية متناثرة كهذه

الرئيسي لانه مهما كانت قيمةُ تلك الانتصارات واهميتُها ما كان ملوك اسبانيا النصرانية لينجحوا في القضاء على امبراطورية الموحدين لو لم تكُنْ قد عانت من الاضطرابات الداخلية . ويمكن لنا ان نقول واثقين انها دَمَّرتْ نفسَها بنفسها .

وكثيرا ما افترض المؤرخون ، وخصوصا هنري تراس في كتابه (تاريخ المغرب الاقصى) ان القبائلَ العربيةَ لعبتْ دوْرا كبيرا في ضعف الموحدين ، وأن عبد المؤمن والمنصور أخطآ في حملهما العربَ على القدوم الىَ المغرب الأقصى حيث لم يكونوا راغبين في الانتقال (16) . والحق ان تلك القبائلَ ساهمتْ مساهمة كبيرة في الاضطرابات التي حدثتْ في عام 625 هـ / 1228 م والسنوات التي تلتْها ، وانها بعد ذلك ساعدتْ كثيرا على تفاقم الأوضاع التي كانت تدنو من الفوضى . لقد كان العربُ في المغرب الأقصى اغرابا بالفعل في بلادٍ معظمُ سكانها من البربر ، وبالتالي فانهم شعروا بحرّية العمل كيفما شاءوا حين كان يبدو ايٌّ تراخٍ من جانب السلطة المركزية ،ولم يحرموا انفسَهم من شيء ولم يضبطْهم أي ضابط ، بخلاف ما هو عليه الحالُ لدى معظم قبائل البربر التي كانت تضبطها التحالفاتُ العريقة والولاء والتقاليدُ القوية . ولما كان العربُ قد دخلوا المغرب الأقصى رغم ارادتهم ، فانهم رأوا من حقهم التصرفَ حسبما تُمليه عليهم مصالحُهم العاجلة ، ومعنى ذلك انهم تحالفوا مع افضل مساومٍ او مع الذين ظنوا انهم يهيئون لهم احسنَ الفرص في المستقبل القريب ، ولم يترددوا

(16) هنري تراس : تاريخ المغرب الاقصى ، باريس ، 1949 ـ 1950 ، الجزء الأول ، ص 360 ـ 361 . والجزء الثاني ، ص 415 ـ 416 .

في تبديل موقفهم اذا كانت الظروفُ تبرِّر ذلك .

وبعد دراسة دقيقة ، يبدو لنا ان العرب انما انتهزوا فرصة ظروفٍ لم تكُنْ من صُنْعهم . فقد تأخروا في المشاركة في « اللعبة » في وقتٍ كان فيه عدّة خلفاء يتصارعون على السلطة ، وكانت وحدةُ الموحدين قد تقوَّضتْ بالفعل ، ولذلك فلا يمكن اعتبار العرب مسؤولين عن ضعف الموحدين : انهم لم يزيدوا الوضع تفاقماً الا حين كان محتملا انه استعصى علاجه . وباختصار ، فان العرب ـ كملوك النصارى في اسبانيا ـ التزموا الهدوء ما ظلَّت سلطة الموحدين قوية ، وحينما ضعفت شاركوا في « اللعبة » . ولا يستطيع المرء ان يُنكر انهم ، في هذه الفترة من تاريخ المغرب الأقصى ، وفيما بعد خلال فترات اخرى من الفوضى ، شكَّلوا تأثيرا مخرِّبا ، الا انه ينبغي ان نحذر من المبالغة في ذلك التأثير . فقبائل البدو لم تقُمْ بذلك الدوْر الا حينما اتاح المغرب الأقصى الفرصة لها .

وينبغي ان نبحث عن سبب غير هذا كتفسير صحيح لضعف الموحدين . لقد سبَق ان ذكرْنا ان عبد المؤمن هو الذي تحمَّل المسؤولية الأولى حينما سعى لأن يسخِّر لفائدة اسرته الحماس الجارف الذي عن طريقه استولى الموحدون على المغرب الأقصى والأندلس ثم المغرب بأسره ، لكن علينا ان نتوخى الدقة في تحديد المسؤولية . فحينما اقام عبد المؤمن نظاما ملكيًا وراثيا ، تمشيا مع تقليد الدول الاسلامية السابقة سواء أكانت اموية أم عباسية أم فاطمية ـ اي حينما عهد الى ابنائه وافراد اسرته بمهام السلطة الرئيسية ـ فانه دمَّر الطبيعة الأساسية لحركة الموحدين القائمة حتى ذلك الوقت على تعاون قبائل البربر التي اعترفتْ برئيسها على انه يتمتع بسلطة دينية .

وبعد ان تولىَّ عبد المؤمن وعقُبه السلطة ، لم يعُدْ اختيار السلطان راجعا الى ما يتحلىَّ به من صفات دينيةٍ بل الى القرابة ، ولم يعد الاعتراف به منوطا بعهدة القبائل ، بل بوجوه الإمبراطورية ومن بينهم رؤساء القبائل العربية . فهل كان عبد المؤمن بهذه السياسة يدرك انه يقوِّض ما كان ابن تومرت قد شيَّده بصبر ؟ اننا لا نعتقد ذلك ، لأن الرجل ـ حسب القرائن المتوفرة ـ لم يكن مخادعا ، وكان نشيطا شجاعا صريحا . لقد قام بما قام به اعتقادا منه ـ حسب المحتمل ـ انه انما كان يرسِّخ عمل سيده ، ويضمن في الوقت ذاته مستقبل أسرته ، وهو تصرف بشرى مألوف .

وبالاضافة الى ذلك فانه ـ باستثناء الامتيازات التي مُنحتْ لأسرته ـ ظل بقية عمل المهدي دون تغيير ، اذ احتُفظ بنظام طبقات القبائل الذي ابتكره ابن تومرت ، وبمختلف انواع الفنيين الذين طرأ تحسينٌ على تدريبهم . كذلك احتفظت أسر الأصحاب الأوائل للمهدي ، كأبي حفص عمر إنتي ، بامتيازاتها وبمسؤولياتها ،ومنحت لها ضروب الانعامات تدريجيا من ذلك ان رجلاً من عَقِبِ ابي حفص عُينً في مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي واليا على افريقية ، ومُنح سلطةً كبيرة . واخيرا ، فان عقيدة الموحدين بقيتْ دون ان تُمسَّ ، ودُرستْ تواليفُ ابن تومرت باهتمام كبير كما كانت تُدرس في حياة صاحبها ، جنبا الى جنب مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . ونظرا لمرور زمن طويل ، فاننا نستطيع التأكد من ان بعضَ التغييرات كانت تحدثُ بالفعل ، الا انه يبدو ان المعاصرين لها لم يشعروا بذلك (باستثناء أخويْ المهدي ، اللذين يظن انهّا تآمرا ضدَّ نظام الحكم لأسباب شخصية بحتة اكثر منها اسبابا عامة وشريفة) .

بيْد ان عبد المؤمن ، بمنحه أسرته سلطـاتٍ كبيرة ،لا بن لحفيده الخليفـة المأمون اسباب التخلّي عن عقيدة الموحدين الأسـاسية . ويبـدو جليا ان المأمون ، بقراره ذاك ، كان يعمل بوحيٍ شخصيّ ، اذ لو سار على النظُم التي اقامها المهدي في تنمل ، لكان استشـار مجلسَه بشـأن قراره البالـغ الخطورة ، ولو فعل لرفض مجلسه الاقتراحَ دون شك واحتفظ بتقليد ابـن تومرت . ومما يثبت صحةَ هذا الرأي ان سلطان تونس الحفصي أعلن تعلُّقَه بالعقيدة التي هي في الواقع روح حركة الموحدين وأساس امبراطوريتهم . كما يبدو واضحا ان أبا زكريا ، سلطانَ تونس ، لم يحاول ان يتخذ من ذلك القرار ذريعة للانفصال عن الخليفة الموحدي والاستئثار بالسلطة لنفسه ، بل انه على العكس من ذلك ، ظل مؤملا بمنتهى الحذر أن تتغلب الحكمةُ وأن يعودَ العملُ عاجلا بتقليد الموحدين . لذلك ، يمكن للمرء ان يـجزم بأن أسرة عبد المؤمن دمَّرت نفسها دون شعور منها ، اولا بسبب اجراءات عبد المؤمن نفسه ، ثم بسبب مسلك المأمون . والواقع انهم ازالوا جوهـر حركة الموحدين ، أي التعلق العاطفي بعقيدة قوية ، بدونها تغدو جماعاتُ البشر أشبه بجسد دون روح وفي هذا الاستنتاج نجد تفسيرًا اساسيًا واحدًا لانهيار الموحدين وللسرعة التي تمّ بها الانهيار .

هذا ويبدو لنا ان ثمة أسبابًا اخرى . ذلك اننا اكّدْنـا تأكيدا قويا على عظمة حضارة الموحدين وجمالها ، ونحن لا نتراجع فيما سبق ان قُلْناه بهذا الشأن ، الا انه ينبغي درسها عن كثب وتقييم تأثيرها . ان المرء حينما يتأمل في الاسوار والمساجد التي شيَّدها خلفاء الموحدين ويقرأ المصنَّفات الفلسفية

لابن طفيْل وابن رشد ، يحق لِه ان يعجب بها كل الاعجاب ، ولعله يميل الى الاعتقاد بأن الإمبراطورية كلهَّا شاركتْ في صنع هذه العظمة ، وهو افتراضٌ خاطيء . ذلك ان حضارة الموحدين اقامتْها في رأينا نخبةٌ صغيرة جدا ، ويبدو واضحا ان إنشاءها لا يرجع الا الى السلطان ورجال بلاطه : فجميع المنشآت العظيمة التي نبدي إعجابنا ببقاياها الجميلة كان الخليفةُ قد أمر بتشييدها ، والشعراءُ والفلاسفة والفقهاء والمؤرخون ـ وعددهم لم يكنْ كبيرا على اية حال ـ لم يوجدوا الا في بلاط الخليفة في مدينة مراكش او حول الولاة في فاس واشْبيلية وتلمسان وتونس . واذا ما اخذْنا كلَّ شيء بعين الاعتبار ، فان هذه الحضارةَ لم تكُنْ سوى مظهرٍ خارجي ، بالغة ما بلغت من التألق ، وتحت هذا المظهر كانت تكمن حقيقة مختلفة تماما .

لقد كانت تعيش خلف المظاهر الخارجية لبعض المدن التي يُسهب المؤرخون في الحديث عنها والتي لم تكنْ كثيرةَ العدد او كثيرةَ السكانِ ، جماهير قبائل البربر التي لم تتغلغل فيها حركةُ الموحدين بصورة تُذكر . اجل ، ان بعضَ القبائل في زمن ابن تومرت كانتْ قد أثارتْها حميةٌ دينية لا شك فيها افضت بها الى تشييد امبراطورية ، الا ان هذه الحميةَ لم تلبثْ ان صارت مجرد عادة دينية ، وفقدتْ قوتها الحيوية الأصلية . وعلاوة على ذلك ، احتفظت القبائلُ بنمط حياتها الذي تميَّز اجمالا بالشقاء والبساطة ، كما احتفظت بلسانها البربري وبعادات آبائها التي لم تكنْ دائما تتفق وتعاليم الاسلام . واذ قد اقتصر استعمال اللغة العربية على القبائل العربية والمدن الرئيسية والبلاط ، فان قبائلَ البربر لم يكنْ لها عمليا سبيلٌ الى الثقافة العربية . ولم تكنْ ثمة طبقة وسطى بين الجماهير في الأرياف وبين النخبة

اخلاصهم لتعاليم المهدي ومثله الأعلى عن العدالة ، انتهجوا سبيلَ الاعتدال والانصاف تجاه المهزومين ، الا ان العلاقات كانت دائما وعلى اية حال علاقات غالب ومغلوب ، وخير دليل على ذلك يقدِّمه الأندلسيون الذين ثاروا ضد حكم الموحدين حالما بدتْ عليه أما رات الضعف . وفضلا عن ذلك ، فان اولئك الأندلسيين كان لديهم من الاسباب ما يدعوهم الى التزام جانب التعقل ، اذ كانوا يُدركون تمام الادراك ، بعد التجربة الطويلة ، ان العدوّ النصرانيَّ يتربَّصُ بهم ، وأنهم وحدهم عاجزون عن دفع أذى النصارى . وبالرغم عن الوثوق من استهدافهم للعدوان لم يسلكوا مسلكا حكيما ، إذ خضعوا لشعور العداء للموحدين السائد بينهم ، وحاولوا قبل كل شيء التخلص من الفاتحين البربر دون تدبر للعواقب .

ومثلٌ آخر على هذا الشعور نفسه يدلُّ عليه سلوك اهل المهدية في افريقية : فقد استصرخوا الموحدين في عام 551 هـ / 1156 م ضد النورمان القادمين من جزيرة صقلية الذين استولَوْا على مدينتهم قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات ، وقد قام عبد المؤمن بتحريرهم . وفي عام 595 هـ / 1199 م ، قدِمَ اليهم ثائرٌ ضد الموحدين فرحَّبوا به وآزروه وذلك بعد اربعين سنة فقط من حكم الموحدين . كما ان قبيلة غُمارة في شمال المغرب الأقصى ثارتْ مراتٍ عديدةً لأنها لم تستطع قط قبول سلطة الموحدين .

اننا لا نقصدُ التنديدَ بالموحدين او ان نوجِّه اليهم وحدَهم تهمةَ اتخاذ موقف كان سائدًا في ذلك العهد . الا ان الحقيقةَ تظلُّ ماثلة دائماً : فالمصامدةُ حكموا امبراطوريتهم كغالبين ، وفشلوا في ان يغرسوا في الشعوب المحكومة

كلمة حول المصادر

وقائمة بالمصنَّفات التاريخية المعاصرة لعهد الموحدين والدراسات الحديثة

ما يزال من الممكن اكتشافُ مصادر جديدة للمعلومات حول عصر الموحدين ، اذ لم يتمَّ بعدُ إعداد قائمة كاملة بمحتويات دور المحفوظات والمكتبات حيث قد يُعثر عليها ، ولا سيما في المغرب الأقصى . ومع ذلك ، فان مصادرَ التوثيق حول هذه الفترة مُرضية نسبيا الآن ، ونورد فيما يلي قائمةً بالمصنَّفات التاريخية المعاصرة لعهد الموحدين والدراسات الحديثة .

وأول المصادر المعاصرة للاحداث نفسها مجموعةٌ من تواليف ابن تومرت : (كتاب أعزُّ ما يُطلب) ، وكان الخليفةُ عبد المؤمن قد أمر بجمع تلك التواليف ، وتولىَّ نشرَها في مطلع القرن العشرين ج . د . لوسياني (انظر أسفله). وهناك ايضا الوثائقُ التي نشرها وترجمها الى الفرنسية وعلّق عليها بمنتهى الدقة استاذي المرحوم ايفارست ليفي - بروفنسال (انظر أسفله) :
(سبعٌ وثلاثون رسالة رسمية موحدية (انظر أسفله)
و (وثائق لم تُنشر عن تاريخ الموحدين (انظر أسفله)

(J.D. LUCIANI)

(EVARISTE LEVI-PROVENÇAL)

(TRENTE-SEPT LETTRES OFFICIELLES ALMOHADES)

(DOCUMENTS INEDITS D'HISTOIRE ALMOHADES)

المتزعمة ، لان هذه الطبقة التي اقتصر وجودُها على بعض المدن كانت صغيرة جدًا وتتكون في كثير من الحالات من اناس وفدوا من الأندلس ، كابن طفيْل وابن رشد ، ومشيِّدي المباني التي أُقيمتْ في مدينة مراكش او الرباط . ومن المحتمل ان الاندلسيين من ذوي الثقافة الرفيعة لم يُبدوا نحو البربر الجفاة سوى الازدراء ولم يفعلوا شيئا لاجتذابهم الى الحضارة الباهرة التي يمثّلونها . ونحن هنا لا نرمي الى التنديد بزعماء الموحّدين أو اتهامهم بعقلية متحجرة تناوىء التقدم ونشر المعرفة ، لان الاهتمامَ الحديث بتثقيف الجماهير لم يكن معروفا في ذلك الوقت ، وحتى لو عُرف ، فان نشر حضارة مدينة مراكش في اودية الأطلس العالي عملية ، تحتاج الى وقت طويل ، ولم تعشْ دولة الموحدين الا اقل من قرن واحد . ومع ذلك ، فالحقيقة هي ان النخبة الموحَدية حقَّقتْ اشياء عظيمة ، الا انها تركتْ خلفها جمهور العامة على ما هو عليه . وما صح بالنسبة للقبائل التي شاركت في الحركة في تنمل ، يكون بالاحرى اصح بالنسبة لتلك الشعوب بما فيهم العرب ، وقد تمَّ إخضاعُها وضمها بالقوة الى امبراطورية لم تكنْ تُبدي نحوها اي حماس .

ولعلنا قد وصلنا الآن الى النقطة الأساسية : ان امبراطورية الموحدين نشأت عن الفتح ، شأنها في ذلك شأن الإمبراطوريات السابقة في شمال افريقيا . وكما ان البربر من الصحراء الغربية اقاموا امبراطورية المرابطين لفائدتهم الخاصة ودون ان يُشركوا الشعوب الخاضعة لادارتهم في الحكم او الحياة الثقافية ، فان امبراطورية الموحدين اقامتْها قبائل مصمودة من منطقة الأطلس الاعلى لمصلحتها الخاصة ، وكانت الشعوب الأخرى في الإمراطورية في خدمة المصامدة . ومن الممكن ان يكون المصامدة ، في

وهي تشمل بعضَ الرسائل الصادرة عن ابن تومرت وعبد المؤمن ، و (كتاب الأنساب) الذي أُلِّف في النصف الاول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، وبصورة خاصة (كتابَ المهدي ابن تومرت) ، وهو « مذكرات » ابي بكر الصنهاجي الملقَّب بالبيذق ، الذي كان من اوائل اصحاب المهدي ابن تومرت بُعيْد عودته من المشرق .

ويضاف اليها بعضُ كتب التاريخ التي صنَّفها معاصرون للعهد الموحدي ، وهي : (المُعجِب) لعبد الواحد المراكشي ، و (نظم الجمان) لابن القطان - وتتناول اولُ قطعة نُشرتْ منه الفترة ما بين 500 - 533 هـ / 1106 - 1138 م ، - ، وكتاب (المنُّ بالإمامة) لابن صاحب الصلاة ، وقد نُشرت القطعة الوحيدة التى وصلتْنا منه وهي تتناول الفترة الواقعة بين 550 - 578 هـ / 1155 - 1182 م . كما نُشر الجزءُ الثالثُ من (البيان المغرب) لابن عذاري .

ثم تأتي كتبُ التاريخ الكبيرة المعروفة عموما مثل : (الكامل في التاريخ) لابن الأثير ، و (البيانُ المغرب) لابن عذارى المراكشي ، و (روضُ القرطاس) الذي ألَّفه رجلٌ لا نعرف سوى اسمه هو ابن ابي زرع الفاسي ، و (تاريخ الدولتينْ) المنسوب للزرْكشي ، وكتاب (الحُلل الموشيَّة) لمؤلف مجهول الاسم عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر لميلادي ، و (كتابُ العِبَر) لابن خلدون .

وقد كُتب عدد كبير نسبيا من الدراسات عن تاريخ الموحدين نورد فيا يلي أهمَّها : التاريخ الأول الذي نُشر كان دراسةً سطحيةً وغيرَ علميّة قام بها

شعورا بالوحدة والأمن . ان سكان المدن الكبيرة التي استفادتْ مباشرةً من حضارة الموحدين ومن السلام الذي واكبها ، كانوا في نهاية الأمر هم الوحيدين الذين ظلوا على ولائهم للإمبراطورية ولم يقوموا قطُّ بمعارضتها جديا حتى خلال الفترة الاخيرة للفوضى التي عمَّت الإمبراطورية . وفي رأينا ان السبب الرئيسي لاخفاق الموحدين هو ان قبائل مصمودة التي استطاعتْ ان تنشيء امبراطورية لم توفق في الاحتفاظ بها لأنها ابقتْ الشعوب المغلوبةَ في حالة خضوع دائم ، ولم تُشركْها في إدارة الإمبراطورية .

احدُ الدبلوماسيين الفرنسيين هو ريني مييه (انظر أسفله) . ثم تأتي الدراساتُ التي اضطلع بها فريقٌ لامع من رجال معهد الدراسات العليا بالمغرب الأقصى ضمَّ هنري باسيه (انظر أسفله) وهنري تراس (انظر أسفله، وروبير مونتان (انظر أسفله) وايفارست ليفي ـ بروفنسال . وثمة فصول كُرِّست لدراسة تاريخ الموحدين في المجموعات التاريخية المعروفة لشارل ـ أندريه جوليان (انظر أسفله) ، وإميل فيلكس جوتيه (انظر أسفله) ، وجورج مارسيه (انظر أسفله) ، وهنري تراس (انظر أسفله) . وثمة اخيرا الدراسات المعمَّقةُ التي نشرها في السنوات الأخيرة علي مراد ، و ج . ف . ب هوبكنز (انظر أسفله) ، وفي مقدمتها ما نشره الباحثُ البلنسيُّ أمبروسيو هويثي ميراندا (انظر أسفله) الذي نَدينُ له كثيرًا بعدد من الترجمات الممتازة المرفقةِ بالحواشي والشروح ، وبتاريخه السياسي النفيس عن امبراطورية الموحدين . ولدينا الآن ايضا كتابٌ معتبر ألَّفه جاستون ديفردون (انظر أسفله) عن مدينة مراكش عاصمةِ امبراطورية الموحدين .

اما ما ألَّفه الباحثون المسلمون فهو محدود الى الآن ، فبالاضافة الى كتاب

(RENE MILLET)
(HENRI BASSET)
(HENRI TERRASSE)
(ROBERT MONTAGNE)
(CHARLES-ANDRE JULIEN)
(EMILE-FELIX GAUTIER)
(GEORGES MARÇAIS)
(HENRI TERRASSE)
(J.F.P. HOPKINS)
(AMBROSIO HUICI MIRANDA)
(GASTON DEVERDUN)

علي مراد الآنف الذكر ، لا توجد سوى دراسة بالعربية لباحث مغربي هو محمد رشيد مُلين تتناول عهدَ المنصور ، وكتاب آخر بالعربية ايضا من تأليف محمد منوني يتناول الحياةَ الثقافيةَ في عهد الموحدين ، ورسالةُ دكتوراه بالفرنسية للباحث المصري سعد زغلول عن الخليفة المنصور . ويحدونا الأمل في ان يساهم الباحثون المغاربة قريبا في دراسة تاريخ الموحدين بما يتلاءم واهميتهم بالنسبة لتاريخ المغرب الاقصى والمغرب الاسلامي .

وفي الواقع فان مجهودا كبيرا ما زال ينتظر المتطوعين له في هذا الميدان ، اذ يُظن ان بعض الكتب او الوثائق التي نجهلها ، ما تزال محفوظة في دور المحفوظات والمكتبات في المغرب الأقصى . لذلك فان من الضروري ان يتواصل البحث بأسرع ما يمكن ، وان تعدَّ قائمة بمجموعات الوثائق التي لم تُكتشف بعد .

ولما كان الباحث هويثي ميراندا قد اقتصر على الدراسة السياسية لحركة الموحدين ، فان الحاجة ما تزال قائمةً لرسم صورة للحياة الاقتصادية والاجتماعية للموحدين ، فضلا عن تطورهم الفكري .

وبالرغم عن الدراسات التي كُرِّستْ للموضوع ، فما تزال اكثر من قضية قائمة ، نذكر منها على سبيل المثال تواريخَ سيرة ابن تومرت ووفاته ، ونظامَ الطبقات الذي ابتكره وأدخل عبد المؤمن تعديلاتٍ عليه ، والتنظيمَ الإداريَّ لإمبراطورية الموحدين (وأسباب انهيارها بهذه السرعة) ، فكل ذلك لم يُدرسْ دراسةً كافية .

ومُجمل القول ، ان هذه الحِقبة التي تستهوى المرء من وجهات نظر كثيرة ما تزال جديرةً بالمزيد من الدراسة .

1 ـ مصنَّفات تاريخية معاصرة لعهد الموحدين

كتاب المهدي بن تومرت مهدي الموحدين . حقّقه وقدَّم له إ . جولدزيهر (انظر أسفله) . الجزائر . 1903 .

سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية ، تحقيق ايفارست ليفي ـ بروفنسال ، الرباط ، 1941 .

ايفارست ليفي ـ بروفنسال : « مجموعة من الرسائل الرسمية الموحدية ، دراسة دبلوماسية وتحليل وتعليق تاريخي » ، مجلة (هسبريس(انظر أسفله العدد 28 (1941) ، ص 1 ـ 80 . نُشرتْ المجموعةُ في كتابٍ مستقلٍ في باريس عام 1962 .

ايفارست ليفي ـ بروفنسال : وثائق لم تُنشر عن تاريخ الموحدين ، باريس ، 1928 .

عبد الواحد المراكشي : الـمُعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949 .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، المجلدان الثامن والتاسع ، بيروت ، 1967 .

(I. GOLDZIHER)

(HESPERIS)

أمبروسيو هويثي ميراندا : مجموعةُ مصنَّفاتٍ تاريخية عربية عن حرب الاسترداد (انظر أسفله)

الجزآن الثاني والثالث .

ابن عذاري : الجزء الثالث من كتاب (البيان المغرب) ، عُني بنشره أمبرسيو هويثي ميراندا ، مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني ، تطوان ، 1963 .

ابن أبي زرع الفاسي : روضُ القرطاس ، تحقيق س . ج . تورنبرج ، (انظر أ سفله) ، مجلَّدان ، أُبسا له ، 43 ـ 1846 .

الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ، 1966 .

الحُلل الموشيَّة في ذكر الأخبار المراكشية : مؤلف مجهول الاسم ، تحقيق أ . س . علّوش ، الرباط ، 1936 .

ابن صاحب الصلاة : المنُّ بالإمامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت ، 1964 .

ابن القطان : جزء من كتاب (نظم الجُمان) ، تحقيق محمود علي مكي ، تطوان ، بدون تاريخ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، المجلد السادس ، بيروت ، 1959 .

(COLECCTION DE CRONICAS ARABES DE LA RECONQUISTA)

(C.J. TORNBERG)

2 ـ دراسات تاريخية بلغات أجنبية

II. HISTORICAL STUDIES

René Millet, *Les Almohades, histoire d'une dynastie berbère*. Paris, 1923.

Henri Basset, « Ibn Toumert, chef d'Etat », *Revue de l'histoire des religions,* II (1925), 438-39. In collaboration with Henri Terrasse, *Sanctuaires et forteresses almohades,* Paris, 1932.

Henri Terrasse, *L'art hispano-mauresque des origines au XIIIè siècle,* Paris, 1932 ; *La mosquée des Andalous à Fès,* Paris, 1941 ; *La grande Mosquée de Taza,* Paris, 1944.

Robert Montagne, *Les Berbères et la Makhzen dans le Sud du Maroc*. Paris, 1930.

Evariste Lévi-Provençal,« Ibn Toumert et Abd al-Mümin ; le « fakih du Sus » et le « flambeau des Almohades», in *Mémoral Henri Basset,* II, Paris, 1928, pp. 21-37.

Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*. 2 nd edn., II, Paris 1952, pp. 92-131 (revised by R. Le Tourneau).

Emile-Félix Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord : Les siècles obscurs,* Paris, 1937.

Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age,* Paris, 1946, pp. 253-75.

Henri Terrasse, *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français,* I, Casablanca, 1949, pp. 261-367.

Ali Merad, « Abd al-Mu'min à la conquête de l'Afrique du Nord (1130-1163) », and « Contribution à l'histoire de la dynastie mu'minide (1163-1223) », in *Annales de l'Insti-*

tut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, XV (1957), pp. 109-63 and XX (1962), pp. 401-75.

J.F.P. Hopkins, « The Almohade Hierarchy », in *Medieval Muslim Gouvernment in Barbary until the Sixth Century of the Hijra*. London, 1958, pp. 85-111. (انظر اسفله)

Ambrosio Huici Miranda, *Historia politica del imperio almohade*, 2 vols., Tétuan, 1956-1959 ; « El reinado del califa almohade al-Rasid, hijo de al-Ma'mun », *Hespéris*, XLI (1954), 9-45 ; « La leyenda y la historia en los origenes del imperio almohade », *Al-Andalus*, XIV (1949), 339«76.

Gaston Deverdun, *Marrakech des origines à 1912*. I., Rabat, 1959, pp. 151-391.

Muhammad Rashid Mulin, « *Asr al-Mansur al-muwahhidi*. Rabat, 1946.

Muhammad Manuni, *Al- ulum wa'l-adab wa'l-funun ala ahd al-Muwahhidin*. Tetuan, 1950.

Sa'd Zaghlul, *Abu Yusuf al-Mansur l'Almohade (1184 à 1199)*. A thesis defended at the Sorbonne in 1952. Unpublished.

صدر هذا الكتاب عن الدار العربية للكتاب بعنوان : النظُم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى . تعريب أمين توفيق الطيبي . ليبيا ـ تونس . 1980

كشاف عام

ـ أ ـ

فهرس الكتاب

المطبعة العربيّة التونسيّة - بنعروس

عدد الناشر : 82 - 53 - 100